

زَوَائِعُ اقْبَسَالِكُم

أبو الحسن علي حسني الندوي

وكيل ندوة العلماء - بالهند

عضو الجمع العلمي العربي - بدمشق

دار الفكر بدمشق

الطبعة الاولى

١٣٧٩ - ١٩٦٠

مطابع دارالعين كركي
١١٠٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

صليتي بمحمد اقبال وشعره

نشأت في عصر وفي بيئة بلغ فيها شعر محمد اقبال قمة مجده وشهرته ،
وفي جيل فتن به أكثر مما فتن بشعر شاعر وأدب كاتب . فلا عجب
إذا أعجبت به صغيراً وعنيت به كبيراً .

ان أسباب الاعجاب بشعر محمد اقبال كثيرة ، وللمعجبين به أن
يتحدثوا عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب الى موافقة الهوى
والتعبير عن النفس ، فالإنسان إنما يحب نفسه ويطوف حولها ويعيش
فيها وبحب كل ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ؛ ولا ابرى نفسي ،
فربما أحببت شعر محمد اقبال لأني رأيت فيه موافق هواي ، ويعبر عن
ضميري وخواطري ، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري ويتناغم مع
عاطفتي ومشاعري .

إن أعظم ما حملني على الاعجاب بشعره هو : الطموح ، والحب ،
والايمان . وقد تجلّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم مما
تجلّى في شعر معاصر ، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحب
والايمان وهي تندفع اندفاعاً قويا الى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح ، وسمو
النفس ، وبعد النظر ، والحرص على سيادة الاسلام ، وتسخير هذا
الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، وبغذيان الحب

والعاطفة وبيعثان الايمان بالله ، والايمان بمحمد ﷺ ، وبعقريه سيوته ،
وخلود رسالته ، وعموم امامته للأجيال البشرية كلها .

انني أحببته وشغلت به كشاعر « الطموح والحب والايمان »
وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ؛ وكأعظم نثر على هذه الحضارة
الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها ؛ وكداعية الى المجد
الاسلامي وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية
الضيقتين ، وأعظم الدعاة الى النزعة الانسانية والجامعة الاسلامية .

قرأت شعره في الصبا وفي عنقوان شباني ، وحاولت أن أنقل
بعض قطعه الأدبية الى العربية . ولم أكن قد قرأت له في ذلك العهد
إلا مجموعة شعره « بانك درا » ، وقد صدرت له دواوين فارسية لم
أكن قد قرأتها وتذوقتها في ذلك الحين ، لضعف ثقافتي الفارسية .
وكانت زيارتي الأولى له في سنة ١٩٢٩ م .

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد قدر لي أن أزور
لاهور ، بلد العلم والثقافة في الهند - غير المنقسمة - ومقر الشاعر العظيم .
وفي يوم صائف شديد الحر من أيام أيار الاخيرة أخذني الدكتور عبد
الله الجفتائي - أستاذ الفن الاسلامي في جامعة بنجاب اليوم - الى محمد
اقبال ، وقد مني اليه وذكر شفقي بشعره ، وذكر والدي مولانا السيد
عبد الحمي الحسني^(١) الذي كان يعرفه محمد اقبال ويعرفه الادباء والمثقفون
بكتابته العظيم « گل رعنا » ، تاريخ الشعر والشعراء في الهند الذي

(١) مؤلف كتاب « نزهة الخواطر » في تراجم أعيان الهند - غير المنقسمة - في ثمانية
مجلدات كبار ، ظهرت سبعة منها من دائرة المعارف ، بميدرا آباد ، الهند . ونشر المجمع العلمي
العمري بدمشق كتابا له « الثقافة الاسلامية في الهند » قريبا .

كان قد صدر حديثاً ولقت الأوساط الادبية وأثار الاهتمام فيها .
وقدّمت اليه ترجمتي لقصيدته البديعة « القمر » فتصفحها محمد اقبال ،
ووجه اليّ أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبر بها دراستي وثقافتي ؛
وانتهى المجلس ورجعت معجباً بتواضع الشاعر العظيم وبساطة مظهره
وعدم تكلفه في المعيشة والحديث .

وبقيت بعد ذلك أعواماً طويلاً من ١٩٢٩ الى ١٩٣٧ أزور لاهور
كثيراً وأقضي فيها أسابيع وشهوراً ، ولا أحرص على زيارة الشاعر
العظيم ثقة ببقائه ووجوده - ولم خدع هذا أناساً - وقد أعان على ذلك
زهدي في زيارة العطاء وعكوفي على الدراسات والاشغال العلمية في لاهور .

وقد صدر في هذه المدة ديوانان جديدان له في اردو - بعد فترة طويلة ،
انقطع فيها عن الشعر في اردو ، وآثر الفارسية لرسائله وشعره - كان
لها دورٌ عظيم في الأوساط الادبية والاسلامية ، وشاعريته فيها أقوى
وفكرته أنضج وأحصف ، ورسائله أوضح . وقد قدّر لي ان اقرأ
« ضرب كلام » وأتذوقه أكثر من « بال جبريل » وان كان من
المقدر والمقرر ان يكون إعجابي بـ « بال جبريل » وعنايتي به بعد
في الترجمة والنقل ، أكثر وأعظم .

كنت مدرساً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء ومقيماً مع أخي
الاستاذ فريد اللغة العربية في الهند مسعود الندوي ، منشئ مجلة « الضياء »
العربية . وكنا نتناشد شعر اقبال . وكان الاستاذ مسعود من شيعة
اقبال ومن كبار المتحمسين له ، وكان يغيظنا ان طاغور أشهر في
الاقطار العربية من اقبال ، وإعجاب إخواننا العرب والادباء في مصر
وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيراً منا في تعريف شعر
اقبال ، وكلما رأينا تنوعاً بشعر طاغور واطراءً له في مجلة عربية

- وما أكثر ما كنا نرى ذلك في المجلات العربية - قوي عزمنا على
ترجمة شعر اقبال ، ورأيناه أمانة في أعناقنا .

وقد قدر الله ان أجتمع بالشاعر العظيم قبل وفاته بشهور ، وان تكون
لي معه جلسة طويلة تاريخية . كان ذلك في اليوم السادس عشر من
رمضان عام ١٣٥٦ هـ (٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٣٧ م) زرت
في منزله في الصباح . وكان معي عمي الاستاذ الكبير السيد طلحة
الحسني^(١) وابن عمي السيد ابراهيم بن اسماعيل الحسني . وكان معتكفاً في
بيته في مرض طال به وأضناه ، وكان مرضه الاخير الذي توفي فيه ؛
صادفنا من نفسه نشاطاً وطيباً ، أو نشط بقدر - لست أدري -
وفاضت قريحته ، فطالت الجلسة وطابت حق
والخادم العجوز يقاطعه حيناً بعد حين إشفافاً .
و كثرة الحديث ، فيعذر ويوقفه ، واسترسل
وتحدث عن كل موضوع ؛ تحدث عن الشعر ال
عن اعجابه بصدق ، وواقعيته ، وما يشتمل عليه من
وتمثل ببعض أبيات الحماسة ؛ وذكر أن ال
الكفاح وحب الواقع ، وأن علوم الط
والعمل والبعد عن البحوث الفلسفية
الروح متغلغلة في المجتمع الاسلامي
والعمل والسيرة والخلق ،
عن الفلسفة الإلهية ، وكيف
أن أوروبا انما نهضت وملكت - من نارت على هذه الفلسفة ما بعد

(١) استاذ الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقاً ومن كبار العلماء والمثقفين .

الطبيعة ، وبدأت تشغل بعلوم الطبيعة المجدية المنتجة ؛ ولكن قد حدث
وثار من المسائل في هذا العصر ما يخاف معه ان ترجع اوربا القهقري
وذكر أن العقل العربي كان أقوى على إساغته الاسلام إساغة صحيحة
وأجدر بحمل أمانته ، وقد أصيب الاسلام في ايران بما أصيبت به المسيحية
في اوربا ، فقد أثرت العقلية الآرية في كلتا الديانتين .

وتحدث عن التصوف وانتقد اغراق بعض رجاله في التخيل والنطرف ،
وتطرق الحديث الى تواجد بعض المتصوفين وطريهم للسمع ، فقال ان
الصحابة كان يتسلكهم الطرب والاعتزاز والأريجية على صهوات الجياد
في ساحة الجهاد .

وتحدث عن التجديد الاسلامي في الهند فأثنى على الشيخ أحمد السرهندي
والشيخ ولي الله الدهلوي والسلطان محي الدين أورنك زيب ؛ وقال انني
أقول دائماً : لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند وحضارتها وفلسفتها الاسلام .

وتحدث عن باكستان^(١) وقال : إن أمة لا تملك أرضاً تستند إليها
لادين لها ولا حضارة ، فلنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة . وان
باكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة
الهندية ، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية ، وأشار الى نظام الزكاة
وبيت المال في الاسلام .

وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند ، قال : أشرت على بعض أمراء
المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الاسلام في غير المسلمين ، ونشر
الثقافة والآداب الاسلامية في المسلمين ، واحياء اللغة العربية وأدبها في

(١) لا يغربن عن البال ان باكستان انما كانت فكرة وحلها يومئذ وانما قامت سنة
١٩٤٧ م بعد وفاة صاحب فكرتها بنحو عشر سنين .

هذه البلاد ، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمي ، وإنشاء صحيفة
انجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين ، حتى يحسب لهم حساب
ويروى جانهم ، وتكون لهم مكانة عالمية تحشى وترجى ؛ وإن في ذلك
صيانة لدولتهم وضمناً لكيانهم . ولكن الامراء المسلمين لم يعرفوا أهمية
المسألة ، ودقة موقفهم ، والاضطراب التي تحدث بهم . وكان يشكو قصر
نظرهم ، وضعف تفكيرهم ، واستغالمهم بأنفسهم ^(١) .

ورأينا الدكتور راغباً في الحديث ، راغباً في بقائنا معه لوقت أوسع ،
ورأينا من المصلحة ان نستأذنه في الانصراف حتى يستريح ، وسامعنا عليه
وخرجنا من عنده ؛ وسافرت من لاهور ذلك اليوم أو من غد .

وأذكر أني استأذنته في ترجمة شعره الى العربية في ذلك المجلس
فتكرم بذلك ، وأنشدته بعض قصائده من « ضرب كلم » ؛ وذكر
محمد اقبال الاستاذ عبد الوهاب عزام وأنه ينوي ترجمة شعره .

وبعد ستة أشهر فوجئنا بنبا وفاته في ٢١ من ابريل عام ١٩٣٨ م .
فصح العزم وانعقدت النية على ترجمة حياته وترجمة شعره . وكتبت في
ذلك الى الاخ مسعود ، وكان يومئذ في « بته » عاصمة ولاية بهار ،
وتبادلنا التعازي وأردنا ان نتعاون على هذه المهمة ، فأبدى استعداداه
وعزمه على ترجمة حياته ، وتقديم فكرته ، وحثني على ترجمة شعره ؛
وذكر أن قريحته لاتطاوله في الترجمة . وشرعنا في العمل ، فكتب
الاستاذ مقالة مؤثرة رقيقة في « الفتح » الغراء التي كان يصدرها الاستاذ
حسب الدين الخطيب من القاهرة ، وكتبت مقالة في ترجمة حياته أذيعت

(١) الفيت هذه الامارات بعد التقسيم بجرة فلم ، وذهب الامراء و « أصحاب السمو »
الذين لم ينتفع الاسلام والمسلمون بثروتهم وكنوزهم . « فلا بكث عليهم السماء والارض
وما كانوا منظرين » .

بعد سنين من محطة الاذاعة في الحجاز . وتوقف العمل لاشغال تعليمية وتأليفية مرهقة ، وكانت فترة طويلة دامت بضع عشرة سنة .

وفي عام ١٩٥٠ م سافرت الى الحجاز ومصر وسورية ونشطت في هذه الرحلة ، التي استغرقت أكثر من عام ، لكتابة عدة مقالات عن اقبال وفكرته وشعره ، وألقيتها محاضرات في دار العلوم وفي جامعة فؤاد الاول (جامعة القاهرة الآن) ومقالة كتبناها في دمشق عام ١٩٥٦ م في زيارتي الثانية لسورية . هي مقالة « محمد اقبال في مدينة الرسول » أذيعت من محطة الاذاعة السورية .

وفتر العزم لترجمة شعره ، خصوصاً وقد علمت ان الاستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عاكف على ترجمة شعره بالشعر . وهو من أجدر الناس بهذا العمل ، وأقدرهم عليه ، لجمعه بين الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامة الفكري مع اقبال وعقيدته ودعوته . وقد ظهرت له عدة دواوين (١) ، وقد ذكر لي بعض الاصدقاء انها لا تؤثر في نفس القارئ ولا تثيرها إثارة الشعر الرقيق ، ولا تعطي صورة كاملة واضحة لفكرة اقبال ورسالته ، ولا تبرز شهرته وما قيل عنه . وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت ان ذلك لا يرجع الى ضعف في الترجمة ، ونقص في العلم والفهم . وهذه الدواوين برهان ساطع على مقدرة الاستاذ عزام الغريبة على النظم العربي ، واقتداره على القرافي الصعبة ، ولكنه لم يكن محسناً الى نفسه ومواهبه ، يوم قرر أنه يترجم الشعر بالشعر؛ وذلك الذي أفقد شعر اقبال قوته وانسجامة ، وأفقد الترجمة بهاءها ورواءها ، وتأثيرها ؛ وأضفى على هذا العمل الادبي العظيم شيئاً من

(١) وهي « رسالة المشرق » و« ضرب الكلام » وقد ترجم « أسرار خودي » و« رموز بيخودي » وشيئاً من « جاويدنامه » .

الغموض ، قد يحول بين القارئ وبين التذوق والتمتع بالشعر الجميل ، والمعاني الرقيقة . وكان الامثل للاستاذ عزام ... وهو من أدياء العربية ومن كبار المنشئين فيها ، ومن البارعين في اللغة الفارسية من أبناء العرب - ان يتشرب فكرة اقبال ثم يصبها في قالب العربي كما فعل ذلك في بعض مقالاته التي ظهرت في « الرسالة » و « الثقافة » وكانت بارعة مؤثرة . ولكل لغة جو خاص ، ونفسية خاصة ، ومنهج تفكير ، وأسلوب تعبير ، وتشبيهات ، ومجازات تتعلق ببيئتها ومجتمعها وتاريخها ومزاجها ومواسمها وفصولها ، اذا ترجمت حرفياً فقدت جمالها ومعناها ، ولم تؤد رسالتها .

وعلى كل فان عمل العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام ماثرة اسلامية ادبية جليلة ، تستحق كل تقدير واعجاب وشكر واعتراف . وهي تدل على علو كعبه في اللغة العربية ، وعلو همته وجودة فريحته ، واخلاصه ومثابرته ، وحبه للاسلام ، والفكرة الاسلامية . وقد كان من سعادة الدكتور محمد اقبال ان يرزق مترجماً وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب في علمه وفضله ونبلاته ونزاهته ولا شك ان روح اقبال مسرورة شاكرة لعمله جزاه الله افضل جزاء وكافاه على هذه المبيرة خير مكافأة .

ولعل الامد كان يطول على هذه الفترة ، وفتور الهمة في الترجمة ، وقد أشغل عنها لشواغل وعوائق كثيرة ، ولكن حدث ما جدد في النشاط وحرك العزم ، وذلك اني قرأت في مجلة « المسلمون » التي تصدر من دمشق كلمة رقيقة مخلصة لأديب العربية الكبير وكانها التقدير ، الاخ الاستاذ علي الطنطاوي ، يحثني فيها على ترجمة بعض قصائد اقبال ليعرف بها مكانة الرجل ، وقوه شاعريته وسمو رسالته ، ويقول في كتاب مفتوح وجهه اليّ (... هل لك ان تختار من شعر اقبال ما يجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، ونتجلى أسباب عظمته

فان كل ماقرأنا من كلامه مترجماً الى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلنا عليه)... (فهل
تضيف يا أخي ! يا أيها الحسن الى مآثرك هذه الماثرة ، فتفتح للعرب كوة على هذه
الروضة المحجبة او تحمل اليهم زهرات منه فتحسن بذلك الى العرب وباكستان
والى الادب والاسلام)^(١)

وقد صادف هذا الاقتراح مني هوى ونشاطاً ، وأثار القريحة ، التي
خدمت وفترت من زمان ، فترجمت قصيدته البديعة « في مسجد قرطبة » في
جلسة واحدة ، وشعرت باستعداد في نفسي ورغبة لذيدة في الترجمة ، لا أستطيع
لها دفعا ، وجاءت المقالات تتوى . ونشرت في بعض المجلات العربية الاسلامية
واقصرت في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها المرحوم العلامة عبد
الوهاب عزام بالتعريب . وكان لديوانه « بال جبريل » اكبر نصيب من هذه
التراجم . وقد رتبها كما كتبت ونشرت ، إلا اني جعلت مقالة « في مدينة
الرسول » خاتمة هذه المجموعة ، لأنها من شعره الاخير ، ولأن المدينة هي نهاية
المطاف للشاعر المؤمن ، مها طالت سياحته الفكرية .

اما بعد فإني لا أعتقد في اقبال عصبة ولا قداسة ولا امامة ولا
اجتهاداً في الدين ، ولا أبالغ في إجلاله والاستشهاد بأقواله ، كما يبالغ
كثير من الكتاب المعاصرين ، والمؤلفين المتطرفين . انني أعتقد أن
الحكيم السنائي ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومي كانوا أرفع
منه مكانة بكثير ، في التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن ،
والدعوة والعمل . وقد كانت له في محاضراته التي القاها في المدارس
أفكار فلسفية وتفسيرات للعقيدة الاسلامية لا نوافقه عليها . ولا أعتقد
- كما يعتقد كثير من الشباب المتحمسين - أنه لم يفقه الاسلام عالم
مثله ، ولم يحيط بعلومه وحقائقه غيره . انني لم أزل - والحق أحق

(١) المجلد العدد الثالث المجلد السادس .

ان يقال - في كل دور من ادوار حياتي وثقافتي معتقداً انه لا يزيد
على أن يكون تلميذاً من تلاميذ الثقافة الاسلامية النجباء الاذكياء ،
درسها دراسة مخلصه ، وكان لا يزال في حاجة الى التعمق والرسوخ
فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار^(١) . وكانت في شخصيته الكبيرة
درة جواهر ضعفت لا تتفق مع عظمتها العلمية ، وعظمة رسالته ،
لم يجد وقتاً كافياً وجواً ملائماً لإكمالها وتسديدها .

أعتقد ان اقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق
في هـ — أنطقه الله الذي انطق كل شيء . أنطقه كما انطق
الشعراء والخواص ، وفي غير عصره . لأنني أعتقد انه كان
صاحب فكرة وازمة ، عن خلود الرسالة المحمدية
وعومها ، وعن خلود كرامتها ، وعن كرامة المسلم وانه خلق ليس
والدعوات التي ظهرت في هذا العصر . تهافت المبادئ والفلسفات
ورجعت فيه من وضوح الفكرة وسهولة ، والشجاعة في نشرها ، وفي نقد هذه الفلسفات
والشجاعة في نشرها ، وفي نقد هذه الفلسفات ، والتحمس لها ،
في كثير من رجال الدين لعدم اكتنائهم بحقيقتهم ، مع الاسف
وأهدافها واسسها وتاريخها . نواياها

وأخيراً لا آخراً وجدته شاعر الطموح والحب والايان ، و
نفسى اني كلما قرأت شعره جاش خاطري وثارت عواطفى وشعرى

(١) ولم يزل يستفيد فعلاً من العلامة الكبير انور شاه الكشميري والاستاذ الكبير
العلامة السيد سليمان الندوي . ورسائله اليه والى صديقنا الجليل الاستاذ محمود الندوي تدل على
سماحة نفسه وتواضعه وروحته العلمية .

بديب من المعاني والاحاسيس في نفسي وبحركة للحماسة الاسلامية في عروقي ؛ وتلك قية شعره وأدبه في نظري .

يحملني على نشر هذا الكتاب في العربية ما أراه من خضوع الشرق الاسلامي العربي للفلسفات الغربية والحضارة المادية خضوعاً زائداً . قد بدأ هذا العالم العربي الاسلامي يتأرجح بين الجاهلية القديمة والجاهلية الجديدة . فاما قومية متطرفة ولما شيوعية ملحدة . وقد سيطرت على الادب والشعر النزعة التجارية او النزعة السياسية ، او فكرة المتعة والتسلية . والاديب الذي يعرف رسالته ويخلص لها وينقطع اليها ، ويسخر أدبه ومواهبه لمحاربة الجاهلية ومقاومة الثورة على الرسائل السماوية ، والقيم الخلقية التي انتشرت في العالم الاسلامي ، وصدت تيار الردة الفكرية ، التي اكتسحت الطبقة المثقفة ، يكاد يكون مفقوداً .

في هذا الجو المكهرب بالفكر الغربي ، وفي هذا العالم المتجاهل او المتناسي لقيسته ، وقوته ، ورسالته ومكانه في قيادة الامم ، ترداد قية شاعر يولد في بلاد بعيدة عن مهد الاسلام ، في سلالة يرمية قريبة العهد بالهداية الاسلامية ، في بيئة كان يحكم فيها الانجليز وتسود فيها الثقافة الغربية ؛ يدرس العلوم العصرية ، والآداب الغربية الى أقصى حدودها ، وفي أعظم مراكزها ، ثم يشتد إيمانه بالرسالة المحمدية ، وحب وغرامه بشخصية محمد ﷺ ، وثقته بهذه الامة ومواهبها ومستقبلها ، وتشتد حماسه للإسلام ، ويشتد إنكاره لأسس الفلسفة الغربية والحضارة الاوروبية ، يستخدم عبقرية الشعرية ومواهبه الأدبية في نشر عقيدته وشعوره ودعوته . ويكون خير مثال للشاعر المؤمن والعالم الداعي والفيلسوف الحنيف . ويحدث هزة في الافكار والآداب في قطر من أعظم الاقطار الاسلامية وأوسعها . ويتجاوز تأثيره الى اقطار بعيدة ، ويسع له صدى في العالم الاسلامي .

ورأينا انها خير هدية نهديا الى الجيل الاسلامي الجديد والى الشباب
العربي الناهض . فتتقدم بهذا الكتاب عسى ان يجدوا فيه ما يحرك
العزم ، ويفتح القريحة ، ويلهب الفيرة ، ويتجه بالادب والفكر اتجاهاً
جديداً . والله من وراء القصد .

ابو الحسن علي الحسني الندوي
٣ ربيع الاول عام ١٣٧٩ هـ

المجمع الاسلامي العالمي
مدونة الطاء لكهنؤ

شاعر الإسلام : الدكتور محمد اقبال

حياته وثقافته ، شاعريته وانتاجه

ولد محمد اقبال في « سيالكوت » مدينة في مقاطعة پنجاب سنة ١٨٧٧ م وهو سليل بيت معروف من اوسط بيوتات البراهمة في كشمير . أسلم جده الأعلى قبل مائتي سنة . وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد اقبال في مدرسة انجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الاخير بامتياز . ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالاستاذ السيد مير حسن ، استاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ؛ فأثر في الشاب الذكي كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الاسلامية ، ولم ينس اقبال فضله الى آخر حياته ولما قضى وطره من الكلية سافر الى لاهور ، عاصمة پنجاب ، وانضم الى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الاخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين ، واخذ شهادة (B.A.)^(١) بامتياز . وفي لاهور اتصلت اسبابه بالاستاذ الانكليزي الشهير « مرتها مس ارنولد » صاحب كتاب « دعوة

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الانكليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها .

الاسلام » (The Preaching of Islam) وعهد الكلية الاسلامية في علي كره سابقاً ، وبلاستاذ عبد القادر المحامي ، والاديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد وعضو مجلس الهند سابقاً ، وكان انشأ اول مجلة علمية أدبية في لغة اردو ، اسمها « مخزن » . وكان اقبال نظم قصيدته الاولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب الانجليزية الافكار ، ونشرها الاستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١ م . ونظم عدة قصائد ادبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في اندية الشعر والادب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع . وفي هذه المدة أخذ محمد اقبال درجة (M.A.) ^(١) في الفلسفة بامتياز ونال وساماً وعيّن على اثره استاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور . ثم استاذاً للانجليزية والفلسفة في كلية الحكومة التي تخرج منها ؛ وشهد بكفاءته علمه الاساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف . ثم سافر الى نة ١٩٠٥ م ، حيث التحق بجامعة « كامبردج » ، واخذ شهادة عالية في وعلم الاقتصاد . ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، ات في موضوعات اسلامية ، اكسبته الشهرة والنقطة . وتولّى في رة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب استاذة ار الى المانيا واخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ثم ر ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ؛ وانتسب الى مدرسة علم الا لسة في لندن ، وتخصص في المادتين ، ورجع الى الهند سنة ١٩٠٨ م ولما مرّ بصقلية في طريقه الى الهند ، مكب على تراجها دموعاً ، و ، افتتحها بقوله : « إبك أيها الرجل ادما لادمعا ، فهذا مدفن الحض ومن دو ان كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

(١) وهي تعادل

في مصر .

اثنين وثلاثين عاما من عمره . وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم . واشتغل الشاعر الفيلسفي والاقتصادي الجيبر والسياسي الحاذق في عدة لغات بالمحاماة ؛ لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته وجل همه في تأليف الكتب وقرض الشعر . وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الاسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ، ومنها قصيدة « العتاب والشكوى » التي استلهم فيها الى الله - على لسان المسلمين - ماحل بهم ، وذكر اعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والاصلاح . ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ؛ بين فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم امر الدنيا تهرباً لما جزوا به من الحزى والهوان . وسرعان ما سارت بها الركبان ، وتغنى بها الاطفال والشبان ، وحفظها الرجال والنساء وهما عندهم أشهر من « قفانبك » . وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الاسلوب والمعاني والغرض . وقال « النشيد الوطني » و « انشودة المسلم » وكلاهما سار سير المثل ، وصار الاول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في ، الهند والنانة انشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ م . وما يوم حليلة بسر ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، وجرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه ، وهاج هائج ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية الأوربية ، وأملأه حزنه ووجدته قصائد ، كلها دموع حارة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوربيين . وتتجلى هذه الروح في جميع مانظم وقال في هذه الفترة . فمن قصائده « البلاد الاسلامية » رد على الوطنية ، ودعوة الى الجامعة الاسلامية ،

و « ياهلال العيد ، و « المسلم ، و « فاطمة بنت عبد الله ، (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) ومحاصرة أدرنة و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى الى الرسول » وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجون الى اوروبا ويشدون اليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ولا يعرفونك » و « هدية الى الرسول » وقد قال فيها « أنه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ ماذا حملت الينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال : إنما لاتيلىق ب مقامكم الكريم ولكنني جئت بهدية ، وهي زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس . »

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤ م وحدث ماحدث فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً . وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهن بالاخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، وبشبه من حماسه نيراناً ، ويفجر بإيمانه أنهاراً : وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته . وفي تلك غمرة قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، منها : « نول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الأجر » و « عالم الاسلام » و « طلوع الاسلام » وكلها آية في القوة والانجذاب باسم « بانك درا » يعني جبر وحظي من القبول مالم يحظ به .

شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الاسلامي سنة ١٩٢٤ م اول مجموع شعره كان اقبال الناس عليه عظيماً ، وطبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الاخير الذي انتهى الى وفاته ، وقد ازداد فكره
نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته
ففسر له عدة كتب بالفارسية . وقد أثر اللغة الفارسية لشعره لأنها
أوسع من الأردية ، وهي اللغة الاسلامية التي تلي اللغة العربية في الاهمية
والانتشار في العالم الاسلامي ، ويتكلم بها قطران ميهان ايران وافغانستان ،
وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان وروسيا
وتركيا . ونشر مجموعتين بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي :
« أسرار خردى » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودى »
(أسرار فناء الذات) و « پیام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب
كتاب « جوته » « تحية الغرب » و « زبور عجم » و « جاويد نامه »
و « پس چه بايد كرد أي اقوام شرق » (ماذا ينبغي ان تعمل
الشعوب الشرقية) و « مسافر » . و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز)
وبالاردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كلم » (ضرب
موسى) وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس »
طُبعت باسم (Reconstruction of Religious Thought in Islam) ومحاضرات
ألقاها في جامعة كامبردج . وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون
وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيماً ، وعلقوا عليها أهمية كبيرة . وترجم
اكثر كتبه الى الانكليزية والفرنسية والالمانية والاطليانية والروسية ،
ومن تولى هذا النقل الاستاذ الانكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم
بالانجليزية « أسرار خردى » و « رموز بيخودى » وألقت في المانيا
وابطاليا مجامع وهيئات باسمه ، لدرس شعره وفلسفته . وانتخب الدكتور
رئيساً لحفلة الرابطة الاسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت
في سنة ١٩٣٠ في « إله آباد » ، وعرض في خطبته فكرة باكستان
أول مرة . وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً

للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة
المستديرة الثاني سنة ١٩٣٢ - ١٩٣١ م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا واسبانيا وايطاليا ،
فزار القطر — رين الاخوين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن
الاسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ
بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزيراً ، وتذكر العرب
الاولين ، الذين حكموا هذه الارض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه
وهوائه أريج حضارتهم . وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه
حرمانه من سجد المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو اليه بعد عهده من
الأذان ، وظمأه الى ذلك . فقال الشعر الرقيق ، الذي يعد من القطعة
الادبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده ^(١) . وكان في زيارته
لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ . وقابله السنيور موسولينى
وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلاً . وسأله
حكومة فرنسا ان يزور مستعمراتها في شمال افريقية ، ولكن رفض
الشاعر الاسلامي الغيور دعوتها ، وأبى ايضاً ان يزور جامع باريس ،
واسأذته وقال ان هذا ثمن نجس اتدمير دمشق ، واحراقها . واثناء اقامته
بأوروبا اقيمت له عدة حفلات تكريم ، منها حفلة تكريم اقامها له اصداؤه
وأستاذته في جامعة كامبردج وجامعة لندن ، وحفلات اقامتها جمعية ارسطو
وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي
في روما . وفي طريقه الى الهند عرج على القدس ، واشترك في المؤتمر
الاسلامي الشهير ، وقال في اثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » ^(٢)

(١) تظهر هذه القصيدة في هذه المجموعة .. انظر « في جامع قرطبة »

(٢) ظهرت هذه القصيدة في هذه المجموعة بعنوان « في فلسطين »

وفي سنة ١٩٣٢ م لبى دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك
 افغانستان في بعثة تتألف من فقيه العلم والشرف سراس مسعود حفيد
 سرسيد احمد خان ورئيس جامعة عليگره الاسلامية ، والاستاذ
 الكبير السيد سليمان الندوي وتحدث اليه الملك الفقيه طويلا ، وافضى
 اليه بذات صدره وبكيا طويلا . ولما زار قبر السلطان محمود الغزنوي فاتح
 الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه واقتضج باكياً ، وقال قصيدة
 حكيمة بديعة ^(١) وعلى اثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .
 وكان الشاعر يشتهي أدواءاً ، يغلبها وتغلبه ، وانحرفت
 صحته اخيراً ، وظل أياماً طويلة رهين الفراش . ولم يزل لسانه يفيض
 بالشعر ، وبلي الكتب ، والمقالات ، ويقابل الاصدقاء والزوار والعواد
 ويحادثهم في شؤون اسلامية وعلمية . وبما نشر له في هذه الايام ، مقالة
 مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس . وبما
 قال قبل وفاته بأيام : جنة لارباب الهمم ، وجنة للعباد والزهاد ، قل
 للمسلم الهندي : أبشر ، فان في سبيل الله جنة أيضاً . وقال قبل
 وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النعمة التي ارسلتها في
 الفضاء ، وهل تعود النعمة الحجازية . قد أظلني موتي وحضرتني الوفاة
 فليت شعري ! هل حكيم يخلفني ... ؟ » ، وقال وهو يجرد بنفسه :
 « انا لأخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم ان يستقبل الموت
 مبتسماً » . وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الاسلام ، وإيمان
 المسلم وبقينه ، ولفظ نفسه الاخير في حبر خادمه القديم ، على حين غفلة
 من العواد والاصدقاء والتلاميذ والاخوان في سائر انحاء العالم الاسلامي .
 وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارة ونوراً ، قبل ان تطلع
 شمس ٢١ ابريل ١٩٣٨ م ^(٢) .

(١) انظر : « في غزنين »

(٢) اذيع هذا الحديث من محطة البلاد العربية السعودية عام ١٩٥١ م .

(١) العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال

سادتي واخواني ! يسرني جداً أن اتحدث اليكم عن شاعر الاسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد اقبال ، ويزيدني سروراً واعتباطاً ان يكون هذا الحديث في مركز تعليمي وأدبي كبير كدار العلوم . وهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم والمدارس التي تخرج فيها والعوامل التي كونت شخصيته .

المدرسة الاولى التي تخرج فيها محمد اقبال :

لقد تخرج محمد اقبال في مدرستين ، أما المدرسة الاولى فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلب في فصولها ودروسها ما بين الهند وانجلترا والمانيا ، ويقرأ على اسانذتها البارعين ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الاسلامي في ثقافته الغربية . أخذ من م الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفة ، واجتماع ، واخلاق ، باد ، وسياسة ، ومدنية غاية ما يمكن لغربي متخصص ، فضلاً عن طفل ؛ وبلغ بدراسته الى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة . هذا في الآداب الانجليزية والالمانية والشعر الغربي في مختلف ادواره ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

ألقيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ من جمادى الثانية ١٣٧٠ هـ

الموافق

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد ، واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما استغل الادب الاسلامي والتاريخ الاسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية والعبقرية الاسلامية ، ولكل منها شروط دقيقة ومستوى عال ، لاحتله الانسان بمجرد الدراسة والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والانتاج . أقول لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها لما زاد على ان يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة أو علم الاقتصاد أو في الادب أو في التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة أو وزيراً في دولة . وصدقوني أيها الاخوان ! أن لو كان ذلك لطواه الزمان في من طوى من كبار العلماء والادباء والشعراء والمؤلفين والقضاة والوزراء . ان الفضل في عبقريه اقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع الى المدرسة الثانية التي تخرج فيها .

اني لأراكم أيها الاخوان ! تذهبون كل مذهب في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء الى موقعها واني لأراكم تتطلعون الى معرفة اخبارها . فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تُدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شك أنهم من كبار المُربّين واعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة وما تكاليفها ؟ وأظن ان لو علمتم بوجودها وحلها لأسرع كثير منكم اليها والتحق بها .

انها مدرسة ماخاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرج منها ؛ لانها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين ، وواضعي العلوم المبكرين ، وقادة الفكر والاصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأيد ما أثبتوا . وتفصيل ما أجلوا ، فيتكوّن من كلامهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

لأنها مدرسة ما تعلّم التاريخ بل تخلق التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار بل تنتج الآثار ؛ لانها مدرسة توجد في كل مكان وزمان ، وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الاخوان ! طويلاً ؛ لانها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كل مكان . هي مدرسة القلب والوجدان . هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية وتمدها القوة الروحية .

قد تخرج محمد اقبال في هذه المدرسة ، كما تخرج كثير من الرجال الموهوبين ، وحدث عنها كثيراً في شعره ، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته . وصرح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة لا يدين للمدرسة الخارجية ، وانه لولا هذه المدرسة وتربيتها لما كانت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا قريحته ؛ وقد حدث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً فسلمهم عليه .

الاول :

الفضل إليه في هذه المدرسة « الايمان » ، الذي لم يزل مربي الايمان ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته . وليس الايمان الجاف الخشب ، الذي هو مجرد عقيدة أو

تصديق بسيط ، بل هو مزيج اعتقاد وحب ، يملك عليه القلب
والمشاعر والعقل والتفكير والارادة والتصرف والحب والبغض . وقد
كان شديد الايمان بالاسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الاخلاص
والاحلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبه ، مقتنعاً بأن الاسلام
هو الدين الخالد الذي لاتسعد الانسانية إلا به ، وان النبي ﷺ هو
خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويرجع محمد اقبال الفضل في تكوين شخصيته ، ونماسته أمام
المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف الى الاتصال الروحي
بالنبي ﷺ ، وحبه العميق له ، ولا شك ان الحب هو خير حاجز
للقلب ، وخير حارس له . اذا احتل قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه
غيره ، او يكون كريشة في فلاة ، او يعث به العاشون ، يقول :
« لم يستطع بريق العلوم الغربية ان يهر لبي ، ويعشي بصرى ، وذلك
لأنني اكنحت بائد المدينة » . ويقول : « مكثت في أتون التعليم الغربي
وخرجت كما خرج ابراهيم من نار غرود » . ويقول : « لم يزل ولا يزال
فراغة العصر يرصدوني ، ويكمنون لي ، ولكني لأخافهم فاني احمل
اليد البيضاء . ان الرجل اذا رزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ
بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلطين . لاتعجبوا اذا اقتنصت
النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فاني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي
تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في
إثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « اسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الامة
الاسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها
ﷺ ، والتشبع بتعاليمه ، والتفاني في حبه . ولما ذكر النبي ﷺ اندفع

الشاعر بمدحه وارسل النفس على سجيتهما فقال أحياناً لا تزال تعد من غر
 المدائح النبوية ، والشعر الوجداني . يقول : « ان قلب المسلم عامر
 بحب المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم
 ان هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرتد على الحصى .
 ان هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان بيت ليالي
 لا يكتحل بنوم . لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان
 أن وجدت أمة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة . اذا كانت في
 الصلاة فعيناه تهلان دمعاً ، واذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً .
 لقد فتح باب الدنيا بفتح الدين . بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أم ولم
 تنجب مثله الانسانية . افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً
 جديداً . كان ماوي في نظرتة الرفيع والوضع ، ويأكل مع مولاه
 على خوانة . جاءته بنت حاتم اسيرة مقيدة ، سافرة الوجه ،
 خجلة مطر فاستجى النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه .

نحن أعرى الطائفة ، نحن عراة أمام أمم العالم .
 لطفه وقهره كله بأعدائه ، وذاك بأوليائه . الذي فتح على
 الأعداء باب الرسم لا تثريب عليكم اليوم . نحن المسلمين من
 الحجاز والصين وإيرا لفة ، نحن غيض من فيض واحد .
 نحن أزهار كثيرة العدد طيب والرائحة . لماذا لا أحبه ولا
 أحسن اليه ، وأنا انسان ، فراقه الجذع ، وحنن اليه
 سارية المسجد . إن تربة المدين من العالم كله ، انعم بمدينة
 فيها الحبيب .

ولم يزل حب النبي ﷺ يزيد
 آخر عمره اذا جرى ذكر النبي ﷺ
 فنورها ألف سلام - فاضت عينه ، ولم ي
 الايام ، حتى كان في
 ذكرت المدينة - على
 قد ألمه هذا

الحب العميق ، معاني شعرية عجيبة ، منها قوله ، وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « أنت غني عن العالمين وأنا عبدك الفقير ، فأقبل معذرتي يوم الحشر ؛ وإن كان لابد من حساني ، فأرجوك يارب أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ ، فأني استحيي أن انتسب إليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي » .

وكان محمد اقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه . يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لاتساوي هذا الايمان البسيط . يقول في بيت : « ان الفقير المتمرد على المجتمع - بشير الى نفسه - لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغفلتا في أحشائه وملكنا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله الا الله ، محمد رسول الله » . وهناك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

هذا هو ايمان محمد اقبال أيها السادة ! وحيه . ومن تتبع التاريخ عرف ان الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصية الفذة ، والعبقرية النادرة ؛ واليه يرجع الفضل في غالب عجائب الانسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ؛ واذا تجردت منه شخص كان صورة من لحم ودم ، واذا تجردت منه أمة كانت قطعاً من غنم ، واذا تجردت منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفىً فحسب ، واذا تجردت منه كتاب كان مجموع أوراق وجبراً على ورق ، واذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكل بلا روح ، واذا تجردت منه مدنية أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه ، واذا تجردت منه مدرسة او نظام

تعليم ، أصبح تقليداً او تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافظ له ؛ واذا تجردت منه حياة كلت الطبائع ، وجدت القرائح ، وأجذبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختنقت المواهب . هذا هو الحب الصادق ، الذي يتجلى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، او خوارق الشجاعة والقوة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرد بذلك على المجتمع . هذا هو الحب الذي يدخل بين الطين والماء والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدة ، وتحفة فنية ؛ كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ؛ وما من أثر من الآثار الباقية في الادب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قوية من الحب .

لقد ضل من زعم ، ان العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وان الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقة المعاني ؛ وان المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والانتاج ؛ وان المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ؛ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبواعة في الخطابة ، وأساليب السياسة كمة ، واللباقة ؛ انما يتفاضل الجميع بقوة الحب ، والإخلاص اذا فاق أحدهم الآخر فانما يفوقه ، لأن الغاية او الموضوع حل نفسه ، ومضى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، واضمحلت فيه شخصيته ، فاذا تكلم تكلم عن لسانه وكتب بقلمه ، واذا فكر فكر بعقله ، واذا أحب او أبغ.

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جناية عظيمة ،
إذ قضت على هذه العاطفة ، التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فيضاً
للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحب الجنسي ، والغرام
المادي ؛ ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها ، أن تفهم أن هناك
حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً ، هو أقوى من هذا الحب ،
وأساءت المدرسة العصرية - وأعني بها نظام التعليم الحديث - إلى الجيل
الجديد ، إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن
توجيه القلوب ، واشعلها بجرارة الايمان وحياة الوجدان . فأصبح العالم
العصري أشبه بجهاد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له
ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ؛ إنما هو دوانة جامدة ، تديرها
يد قاهرة ، أو ارادة قامرة .

فاذا رأيتم أيها السادة ! أن شعر اقبال من نوع آخر ، غير النوع
الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر
الذي ندرسه في مدارسنا ؛ هذا شعر تهتز له المشاعر ، وتتوتر له
الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تخطم
السلاسل ، وتفك الاغلال ، وتتمرد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم
بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ؛ شعره إذا قرأه الانسان في
لغة الشاعر ، أحس بأنه قد مرّ به تيار كهربائي فم-زه هزاً عنيفاً ؛
إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا انه ليس إلا لأن الشاعر قوي
الايمان ، قوي العاطفة ، جياش الصدر ، فياض الخاطر ، ملتهب
الروح ؛ قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، وقد
أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها واشعلها فيه .

العامل الثاني :

اما الأستاذ الآخر الذي يرجع اليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ، فهو استاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين ؛ ولكن ليس الشأن في وجود الاستاذ وكونه بمثابة اليد من تلاميذه ؛ انما الشأن في معرفته ، وتقديره ، وإجلاله ، والإفادة منه ، والا لكان أبناء البيت ، ورجال الاسرة ، وأهل الحلي أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم . ولكن بالعكس من ذلك رأينا ان العالم الكبير ، والحكيم الشير ، والمؤلف العظيم ! ضائع في بيته ، مهجور في داره ، يرهق فيه أولاده ويستعين بقيمته افراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ويتضلع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الاخوان ! فذلك الاستاذ العظيم هو القرآن الكريم ، الذي أثر في عقلية اقبال وفي نفسه عالم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية . ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل ، حديث العهد بالاسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا "كتاب العجيب" ، فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار . والله يشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب

العالم الجديد من المعاني والحقائق اعظم من سرور

العالم الجديد ونزل على شاطئه . أما الذين ولدوا ونشأوا في

الجديد ، فكانوا ينظرون الى « كلبس » واصحابه باستغراب ودهشة ولا يفهمون معنى لما كان يحاظرهم من سرور وفرح ، فانهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد اقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس

ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن ، واستطاعه إياه .
وقد حكى قصته لقراءة القرآن . قال : « قد كنت تعبت أن أقرأ
القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني ماذا
أصنع ؟ فأجيبه بأني أقرأ القرآن وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات
يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي . وذات يوم قلت له : ما بالك بأبي !
تسألني نفس السؤال وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة
السؤال من غد ؟ » فقال : إنما أردت أن أقول لك : يا ولدي ، أقرأ
القرآن كلما نزل عليك . ومنذ ذلك اليوم بدأت أنفهم القرآن
وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت .

ولم يزل محمد أقبال الى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ،
ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلم جديد ، وإيمان جديد ،
واشراق جديد ، وقوة جديدة . وكلما تقدمت دراسته ، واتسعت
آفاق فكره ، ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم
الابدي وأساس السعادة ، ومفتاح الأفعال المعقدة ، وجواب الاسئلة
المحيرة ، وأنه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ولم يزل يدعو
المسلمين وغير المسلمين الى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ، ودراسته
والاهتداء به في مشا كل العصر ، واستفتائه في أزمت المدنية ، وتحكيه
في الحياة والحكم ؛ ويعتب على المسلمين لإعراضهم عن هذا الكتاب ،
الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين . يقول في مقطوعة
شعرية : « إنك أيها المسلم لاتزال أسيراً للمتزعمين للدين ، والمحكرين
للعلم ؛ ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً . إن الكتاب الذي
هو مصدر حياتك ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك
الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتبوت بسهولة . فواعجبا ! قد

أصبح الكتابُ الذي أنزلَ لينحك الحياة والقوة ، يُتلى الآن لثموت براحة وسهولة « (١) .

وقد أصبح محمد اقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر ، لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفة وهدية لأغنى رجل في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ؛ ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك افغانستان الى كابل ، ونزل ضيفاً عليه أهدى محمد اقبال الى الملك نسخة من القرآن ، وقدمها اليه قائلاً : « ان هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضمير الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان عليّ فاتح خيبر » . فبكى الملك وقال : لقد أتى على نادر خان زمان ، وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب ، (٢) .

العامل الثالث :

والركن الثالث ايها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والإعداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها وقد عامل نفسه بما نصح به غيره في قصيدة . يقول فيما : « انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكشف سر الحياة . ما عليك اذا لم تنصفي وتعرفني ، لكن انصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفيّاً . ما ظنك بعالم القلب ، هو كله حرارة ، وسكر ، وحنان ، وشوق ؛ أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال . إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل . إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الافرنج ولا اختلاف الطبقات ، لقد

(١) ارمغان حجاز

(٢) مثنوي مسافر

كدت أذوب حياءً ، وتندى جيبني عرفاً إذ قال لي حكيم : اذ
خضعت لغيرك ، أصبحت لأملاك قلبك ولا جسك ، (١) .

وقد كان اقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ؛ يرى أن العبد يسمو
بها الى درجة الملوك ، بل يعلوهم اذا كان جريئاً مقداماً . يقول في
قصيدة : « إن الانسان اذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق وتمسك
بآداب هذه المعرفة انكشفت على هذا الملوك أسرار الملوك . ان ذلك
الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، افضل من أكبر ملوك العالم .
إن الصراحة والجراءة من اخلاق الفتيان ، وإن عباد الله الصادقين
لا يعرفون أخلاق الثعالب . » وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد
لا يقبل رزقاً اذا قيد حريته . يقول في نفس القصيدة : « يا صاح !
إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ، ويمعني من حرية
الطيران (٢) » .

وكان اقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته - في غير صلف وغرور -
فيضن بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره .
يقول في مقطوعة : « لك الحمد يا رب ! إذ لست من سقط المتاع ،
ولست من عبيد الملوك والسلطين . لقد رزقتني حكمة وفراصة ،
ولكني أحمذك على أني لم أبعها لملك من الملوك (٣) . » ويقول مقتخراً :
« إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق ، ولكنني غني النفس
أني » . وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة ، يقول فيها : « اذا لم
تعرف رازقك ، كنت فقيراً الى الملوك ، واذا عرفته ، افتقر إليك .

(١) بال جبريل

(٢) بال جبريل

(٣) أيضاً

كبار الملوك . إن الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتل للروح ،
وأنت مخير بينها . إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت
البطن (١) . ولا شك أن محمد أقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته ، وامتنعت عفته . قدم
إليه رئيس وزارة في دولة ، في عيد ميلاد محمد أقبال ، هدية محترمة من
النقود ، فرفضها ، وقال : « إن كرامة الفقر تأتي عليّ أن أقبل
صدقة الأغنياء » . وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك
في إفريقيا الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب
الملك تكون سافرة ، تستقبل الضيوف في الولايم الرسمية ، وتكون
مع زوجها في الحفلات . فأشير عليه بذلك ، فرفضها ، وقال : « مادام
هذا شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي » .

وقد كان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوته ومواهبه ؛
يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة في هذه الحياة ، وليس له أن يضع
نفسه محل الشاعر ، الذي ليست له رسالة ، والنظاميين الذين ينظمون
كل مناسبة . فاذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه . يقول في أبيات
بها إلى رسول الله ﷺ : « إني لأشكو إليك ياسيد الأمم ! إن
لني يعتقدون أني شاعر نظّام ، فيقترحون عليّ اقتراحات » .
في بيت آخر : « أنا حائر في أمري ياسيدي رسول الله !
إن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون أرشح
بوفلان ، فماذا أفعل ؟! » .

هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، وبما
انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري

والهيام الأدبي ، الذين يصاب بها أداؤنا وشعراؤنا وكتابنا وعلماؤنا ، فينتجعون كل كلاً ، ويسمون في كل واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ؛ ويمدحون كل شخص ، ويظنون ، الى آخر حياتهم ، لا يعرفون أنفسهم ولا يعلمون رسالتهم . أما الدكتور محمد اقبال ، فكان من توفيق الله تعالى ومن حسن حظ الاسلام والمسلمين في الهند ، أنه عرف نفسه في أول يوم ، وقدّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والايان برسالتهم ، والطموح الى القوة والحرية والسيادة . كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ان لا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر وغلبه . كانت سائل القريحة ، فياض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ . وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ؛ وكان شاعراً فناناً وصناعاً ماهراً سلم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجور . فما من شاعر ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة والتراكيب والمعاني والافكار والاغراض . وهو من أفراد شعراء العالم في التنفان والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات . وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الانجليزي والاماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه . ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد اقبال فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ؛ ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية وقوته الأدبية ، وعبقريته الفنية لرسالة الاسلام . فلم يكن شاعر ملك ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ؛ بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ولطيب الازهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشاراً . فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد

حكيمته ، يسبقها ويوطئ لها أكثافاً ، ويدلل لها صعباً ، ويفتح أبواباً . وكان شعره من جنود الاسلام - ولله جنود السلوات والارض - ولا أعرف أحداً أَرْضَى الله ورسوله بشعره ، بعد حسان بن ثابت رضي الله عنه ، مثل ما أَرْضَى هذا الشاعر المسلم . فأيقظ أمة ، وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحاً الى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الاسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا تَرْضَى إلا بدولة تحكمها وتدير دفتها . أوجد شعره القوي المراز القلق الفكري ، والاضطراب النفسي ، الذي عم هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الاسلامي بصفة خاصة فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الاجانب ، حتى أصبحت في يوم من الايام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع الى هذا الشاعر الإسلامي . وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية والتذمر من الحاضر ، والتطلع الى مستقبل ، والقلق النفسي ، فإذا تم هذا كله ونضج ، قامت دولة ؛ كان شعر قد أقام دولة ، وأحدث ثورة فكرية ، كانت سبب من حياة الى حياة ومن وضع الى وضع ، فهو من غير شك ، له . وما ذاك أيها الاخوات إلا بمعرفة الرجل نفسه ، مع لواحه وقوته ، ووضعها في محلها ، والغيرة عليها ، من موضوعات تافهة ، وألفاظ فارغة ، وألوان زاهية ، نية . وكما ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب أنفسهم ، وقية ما يحسنون ، وما يمتازون به هم وعلمهم بالمناداة أو باللغة المصرية « بالمزاد العاني » ،

ومض
الكبير
عن أقرام

وقتلوا انسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون .

العامل الرابع :

والمرابي الرابع أيها السادة الذي يرجع اليه الفضل في تكوين سيرته
وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدة المعاني ، وتدفق الافكار
هو انه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ،
بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرض للنفحات السحرية ،
ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو به وحزنه اليه ،
ويتزود بنشاط روحي جديد ، واشراق قلبي جديد ، وغذاء فكري
جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الانسان فيه
قوة جديدة ، وحياة جديدة ، ونوراً جديداً ؛ لأنه يتجدد كل يوم ،
فيتجدد شعره ، وتتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السحر ،
ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ، ومفكر ، لا يستغني عنها
أكبر عالم أو زاهد . يقول في بيت : « كن مثل الشيخ فريد الدين
العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكيمته ، أو أبي حامد
الغزالي في علمه وذكائه ، وكن مع من شئت في العلم والحكمة ،
ولكنك لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك انسة في السحر » . وكان
شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به . يقول في مطلع قصيدة :
« رغم ان شتاء انجلتوا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في
الجسم عمل السيف ، ولكني لم أترك في لندن التبكي في القيام » .
وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً . يقول في بيت : « خذ
مني ماشئت يارب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السحر ، ولا تحرمني

نفسها . بل كان يتنى على الله أن تتعدى هذه الأنة السحرية والحركة
القلبية الى شباب الامة المتنعين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفس
الحياة في هياكلهم . يقول في قصيدة : « اللهم ! جرح اكباد الشباب بسهام
الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والاماني النائمة في صدورهم . بنجوم
سمواتك التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً
وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الاسلامي لوعة القلب ،
وارزقهم حي و فراستي . ويقول في قصيدة : « اللهم ! ارزق الشباب
أننى في ، وانبت لصقور الاسلام القوادم والحوافي ، التي تطير
بها . وليست لي امنية يارب ! إلا ان تنتشر فراستي ، ويعم
نور سلمي . »

والسادة ،
والرومي ،
التي اجتاحت
انتصاراً قو
والمعاني الرو
التي كانت ت
الشرق الإسلام
والمعاني الجديدة
البدعية ، وطابع
التي لا تزال فريدة
له التأثير القوي في

والماؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها
المعنوي « بالفارسية وقد كتبه مولانا جلال الدين
نية ونفسية شديدة ، ضد الموجة العقلية الاغريقية
مي في عصره ، وقد انتصر فيه للايمان والوجدان
صحف للقلب والروح والعاطفة والحب الصادق
بحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية ،
سلمين والمدارس الدينية والأوصاف العلمية في
ب متدفق قوة وحياة ، زاخر بالأدب العالي
الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت
بة ، والطبع الريان الذي يلي هذه المنظومة
في مكتبة الاسلام العامرة ، ولا يزال
، من رق العقل ، والتقديس الزائد

القيم العقلية ، والخضوع للمادية الرغناء ؛ وبيعت التمرد على عالم المادية الضيق والتطلع الى أجواء الروح الفسيحة . وكان العالم في عصر محمد اقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي ، الذي جرف جميع القيم الروحية والحلقية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بُعداً عن المعاني الروحية ، والمبادئ الحلقية ، وما بعد الطبيعة . فاصبحت حضارة عقلية ميكانيكية . وقد قضى محمد اقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ؛ وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه المتجدد ، وقلبه الحار الفاض بالآيمان . وفي هذا الاضطراب الفكري والاضطراب النفسي ، ساعده المثنوي مساعدة غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحل به كثيراً من ألغاز الحياة . ولم يزل محمد اقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثير من أبياته ، ويعزو اليه كثيراً من الحقائق والحكم . يقول في بيت يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « قد سحر عقلك سحر الافرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة آيمانه . لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بجرأ من العلوم » . ويقول في بيت : « لقد أفدت من صحبة شيخ الروم ان كلياً واحداً - يشير الى سيدنا موسى - هامت على راحته ، يغلب الف حكيم قد أحنوا رؤوسهم للتفكير » . وكان محمد اقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ويخلفه في مهمته العلمية والروحية ؛ وكانت يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار الى ذلك إشارة لطيفة . يقول في قصيدة : « لم ينهض رومي آخر من ربوع العجم ، مع أن ارض ايران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز ^(١) »

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين تبريزي ، شيخ الرومي في التصوف .

كما كانت ؛ إلا أن اقبال ليس قانطاً من تربيته ، فاذا سقيت بالدموع
أثبتت نباتاً حسناً ، وأنت بحاصل كبير .

هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد اقبال ، وهذه
المدرسة الثانية التي تخرج فيها ؛ ولا شك انها اقوى
هي . فاذا كانت المدرسة الأولى منحه مفردات
الكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة
الثانية كيف المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه ، وامته
وقد منحه الم العقيدة الراسخة ، والايمان القوي ، والخلق
المستقيم ، والتفكير والرسالة الفاضلة .

(١) نظرة محمد اقبال الى نظام التعليم العصري ومركزه

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد اقبال الى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعف كثيرة ، وجوانب نقص عظيمة ، فتناولها بالانتقاد في صراحة وشجاعة ، ولفت اليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنائات المدرسة - ويقصد بها نظام التعليم الحديث - على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره . يقول في بيت : « لقد خرجت من المدرسة و « الزاوية » حزينا ، لم أجد فيها الحياة ، ولا الحب ، ولا الحكمة ولا البصيرة » . ويقول في بيت آخر : « أما رجال المدرسة ففقدوا البصر ، وميتوا الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصروا المهمة ، وضعفوا الطلب ، قليلو البضاعة » .

جنائات المدرسة :

ومن رأي محمد اقبال ، أن التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جناية عظيمة إذ اعتنت بتربية عقله ، وتثقيف لسانه ، ولم تعن شيئاً بتغذية قلبه ، وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه ، وتهذيب نفسه ؛ فنشأ جيل غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ؛ قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين

(١) من معاصرة القيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ٢٠ جادى الثانية ١٣٧٠ هـ .

ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ؛ فالأول ضخم كبير ، والثاني ضعيف ناعم . وهو إذا وصف هذا الجيل ، الذي عاش فيه وعرفه عن كتب واتصال ، صورته تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد . يقول :

« ان الشباب المثقف فارغ الأكواب ، ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الجسم ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير الإيثار ، مهمل في هذا العالم شيئاً . هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ، يفترون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم . يبنون الأجانب من ترائيلهم ، يفتنون وأدياراً ؛ شباب ناعم ، رخو رقيق في الشباب كما انهم في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون ان يفكروا ، ان المدرسة قد نزعته منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خائفين ، مهمل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضائر ، دون أكفهم الى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيدهم بغيرهم بشرفهم في ذلك . إن المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يجبرهم بشرفهم . مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ، لا غالب إلا الله . يشترون من الافرنج اللات ومناة . ان عقولهم تطوف حول الاصنام . إن الافرنج قد قتلوه ، بوضرب ، عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تدمع ، وقلوب لا تذبذب بالقوارع . كل ما عندهم من علم ، وقلوب لا تذبذب بالماديات . قلوبهم لا تذبذب ، وقلوبهم جامدة ، واقفا حياتهم جامدة ، واقفا ويذكر محمد اقبال

في جن هذا الجيل وضعفه الخلق

هو الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقى ونشأة الشباب المتحللة ، يقول في قصيدة : « لا أستغرب أيها الشباب المتعلم ! إنك حين جبان ، فإن قلبك بارد لالوعة فيه ولا حرارة ، ونظرك غير عفيف . إن الشباب المثقف الذي استنارت عينه بنور الافرنج قد يكون لبقاً في الحديث متشدداً في الكلام ، ولكن عينه لا تعرف الدموع وقلبه لا يعرف الخشوع » . ويرى محمد اقبال ان المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخلقى وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع الى المحل الوضعي . يقول في بيت : « أشكو اليك يا رب ! من ولاة التعليم الحديث ، إنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الاسود تربية الحروف » . ومن أسباب هذا الضعف النفسي هو العقل المثبط الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ويحذر من سوء العاقبة ويكبر الاخطار . يقول في بيت : « إن التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينازع العقل ، ويقول له : لاتعلل ولا تثبطني عن المغامرة . إن الاسرار التي حجبها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى » . ومن أكبر أسباب هذا الضعف ، الذل والتقدير الزائد للمادة والنظر الى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم . يقول في بيت : « إن ذلك العلم سمّ نافع للأفراد الذين ليست لهم غاية ، إلا حفتان من شعير » (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف) .

مآخذه على التعليم :

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم انه يبعث على التعطل وحب الهدوء والراحة ، ويجعل المتعلم كالحبيط الهادئ ، لا حركة فيه ولا اضطراب . يقول في بيت : « وماك الله أيها المتعلم بطوفان ، فان بجرك هادئ . لا اضطراب في موجه » . وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم « افرنجية »

وحب الزينة ، يقول في قصيدة : « ان مقاعدك ايها الشباب المسلم افرنجية
وزرايبك ايرانية ، واني اكاد أبكي دما اذا رأيتك في هذا الترف والبذخ .
لاخير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا مادمت متجرداً من قوة عليّ
واستغناء سلمان » .

ومن مآخذه على هذا التعليم انه يحدث الفوضى الفكرية . يقول
في بيت : « ان المدرسة تحرر العقل بلاشك ولكنها تترك الافكار بغير
نظام وارتباط » .

ومن مآخذه على نظام التعليم العصري والمدرسة التي تمثله وتؤدي
رسالته انها مصابة بالتقليد والجود وبمجردة من الابتكار والاجتهاد . يقول
في قصيدة : « ان العالم أسير التقاليد والاوزاع ، وان المدرسة منحصرة في
نطاق ضيق ، يا للأسف ! ان الرجال الذين كانوا يستطيعون ان يكونوا أئمة
: ماتهم اصبحت عقولهم بالية ، وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد
هم . »

ان الدكتور محمد اقبال لا يرى ان هذا الجيل حي قائم بنفسه ،
يعقله ، انه يعتقد انه ظل لأوروبا ، وان حياته عارية من الغرب .
ت : « يتراءى لك ان الشاب المتعلم حي يوزق ولكنه في
استعار حياته من الغرب » . ويخاطب المتفرنج ويقول :
الاجلي الافرنج ، لانك بناء قد بنوه . هذا الجسم العنصري
انفس ، فانت غمد محلي بغير سيف . وجود الله غير
مودك انت غير ثابت في نظري » .

والتعليم الغربي قد ضعف الروح المعنوية في
الشباب المسلم
مولته جنابة عظيمة ، فأصبح شباباً رخوار قيقاً
ماتعاً أغبر ، ولا يتحمل المكروه . يقول في قصيدة

يخاطب فيها بعض المربين: «حيا الله شبيبتيك، يا مربي الجيل الجديد!، ألقى عليهم درس التواضع، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية. علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج. انت عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة الى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية». وكان لا يفتقر هذه الجريمة يقول في موضع آخر: «انا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً، الحكمة التي تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً».

★ ★ ★

نظرة محمد اقبال إلى العلوم والآداب

آراؤه في العلوم والآداب :

للدكتور محمد اقبال آراء حصيفة في العلوم والآداب والشعر ، هي عبارة تفكيره وتجاربه . منها ، أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله ، وقوة عظيمة ، يحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع ؛ وثورة فكرية ، يضرب به الاوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، ويشعل القلوب حماسة وغضباً ، ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملا النفوس قلقاً واضطراباً ، وتذمراً من الشر ، وتطلعاً الى الخير ؛ فلا بد أن يكون في قلم الاديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى ، وأن يؤدي رسالته في العالم ؛ وكل أدب استغل لجمع المادة أو ارضاء الاغنياء والاثرياء أو إثارة الشهوات ، أو على الاقل كان أداة للهو والتسلية ، والتذوق بالجمال والتغني به ، فهو أدب ضائع مظلوم ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ما وهب له . يقول في بيت : « أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ؛ ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر » . ويعتقد محمد اقبال أن الأدب لا يصل الى حد الإيجاز حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحي ، ويسقى بدمه .

يقول محمد اقبال هذا ، ويرى بالعكس أن الادب في الشرق

الإسلامي قد أصبح تتحكم فيه المرأة ؛ فأصبح لا يتحدث إلا عنها ، ولا يتغنى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصور إلا إياها ، ولا يرى في الكون إلا ظلها وجعلها ؛ وهذه عقيدة جديدة في « وحدة الوجود » التي يمكن ان تسمى « الوجودية الادبية » . وكأن الادب المصري ينادي بلسان حاله (لا موجود إلا المرأة) أو (لا موجود إلا الفتاة) . يقول محمد اقبال : « أسفاً للشعراء والرسمين وكتاب القصة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة » . ولا شك انه تصوير صادق للاتجاه الادبي العام في الشرق الإسلامي ، واندفاع الادب المتهور وراء المرأة ، وهيامه بها ، وإعراضه عما سواها .

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأي خاص . فهو يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهد والتضحية ، وأن الفلسفة التي تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتتلئ بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ولا تدخل في صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ، انا هي فلسفة منهارة لا تستطيع ان تعيش . يقول في بيت : « ان الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة » .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ونقدها ، والتفكير الطويل العميق ، الى اخفاق الفلسفة في حلّ مشاكل الحياة ؛ وانها صدقة لامعة خالية من اللؤلؤ ، وهو بعزل عن الحياة والكفاح ، لا تساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً للحياة ؛ وان الدين هو الذي ينظم المجتمع ، وينور الطريق ، ويقدم دستوراً للحياة ، وان سيدنا محمداً ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم . عرف الشاعر صديقاً له من الهاشمين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً ، وتزلزلت عقيدته الإسلامية . فكتب اليه محمد اقبال قصيدة ، يقول : « أنا رجل كما تعرف ، أنتهي في أصلي الى سُومَنات (المعبد الوثني المعروف في

الهند) وكان ابي من عباد اللات ومنساء ، وإن امرني عريقة في
 البرهمية ؛ ولكن يجري في عروقك دم الهاشيين ، وتنتمي الى سيد
 الأولين والآخرين ؛ وقد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي ، وجرت مني
 مجرى الروح . أنا ، وإن كنت لأحسن شيئاً ، فلا شك أني نزلت
 في أعماق هذه الفلسفة ، وتغلغلت في أحشائها ، وبعد ذلك أقول : إن
 الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة ، وأنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً
 عن صميم الحياة ؛ وإن بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل . هذا
 « هيجل » ، الذي تبالغ في تقديره ، إن صدقته خالية من اللؤلؤة
 وإن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام . لقد انطفأت شعلة القلب في
 حياتك ايها السيد ! وفقدت شخصيتك ، فأصبحت أسيراً « لبرجسان » . إن
 البشرية تريد أن تعلم : كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها ؛ إن
 بني آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستوراً للحياة ، ولكن الفلسفة
 لاتساعد في ذلك . بالعكس من ذلك ، إن المؤمن إذا نادى الآفاق
 بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون . إن الدين هو الذي ينظم الحياة ،
 وأنه لا يكتب إلا من ابراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك ايها السيد ! بتعاليم
 جدك ﷺ . الى متى يا ابن علي ! (رضي الله عنه) تقلد ابا علي (ابن
 سينا) ، إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشي (يعني رسول الله
 ﷺ) خير لك من القائد البخاري (يعني ابن سينا) .

وبالاجمال ان الدكتور محمد اقبال يرى ، أن نظام التعليم الحديث قد
 أنفق في أداء رسالته وأخفق في إنتاج جيل جديد يحسن الانتفاع
 بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادته العلمية وثروته الثقافية ويضع كل شيء
 في محله ، ويعيش حياة سعيدة مطمئنة . بالعكس من ذلك ، وجد جيل
 مثقف ثقافة عالية ، يعرف عن مجاهل افريقية والقطب الشمالي ، وعن
 حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً ، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلاً .

ويسخر التجارة والكهرباء ، ويسخر الطاقة الذرية في الزمن الاخير ولا يملك نفسه وقوته . وبطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسمك ، ولا يحسن أن يمشي على الارض ، وما ذلك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه ، وفسد مزاجه ؛ وكيف يستقيم الظل والعود أعوج ؟ يقول في قصيدة : « من الغريب ان من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح . وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر في بيداؤ أفكاره . ومن عكف على الالتغازيلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضر » .

تصوير للشباب المسلم :

وفي الأخير ان الدكتور محمد اقبال يتبنى للاسلام جيلاً جديداً . شبابه طاهر نقي وضربه موجع قوي ، اذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وان كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ؛ يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل . هذا مع الاعداء وذاك مع الاولياء . اذا تكلم كان رقيقاً ، واذا جدّ في الطلب كان شديداً حفيظاً . وكان في حائتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً . آماله قليلة ، ومقاصده جليلة . غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى . غيور في العسر رؤوف كريم عند اليسر . يظماً إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة . اذا كان بين الاصدقاء كان حريراً في النعممة ، وان كان بين الاعداء كان حديداً في الصلابة . كان طلاء وندي ، تنفتح به الازهار وتوف به الاشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الامواج وترتعد له البحار . اذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً ، كان سلافاً ؛ وإن مر في طريقه بجداثي ، كان ماءً سلسلاً . يجمع بين جلال ايمان الصديق وقوة علي ، وفقر أبي ذر وصدق سلمان ،

يقينه بين أوهام العصر ، كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء . يُعرف
في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر . الشهادة في سبيل الله
أحب إليه من الحكومات والغنائم . يقتنص النجوم ، ويصطاد الاسود ،
ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كانا . يرفع قبته
ويزيد في سعده ، حتى لا يستطيع أن يشـتريه غير ربه . شغلته مآربه
الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والنأتق في اللباس . وشعر
بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في
حسن صوته . .

الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال

بحث عن انسان :

قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته : « رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلًا ، كأنه يبحث عن شيء . قلت له : يا سيدي ! تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معايشة السباع والدواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن انسان في هذا العالم . لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والاقزام ، الذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال ، يلا عيني برجولته وشخصيته ويروِّح نفسي . قلت له : لقد غرّتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدتُ نفسي ، وأنضيتُ ركابي ، ونقبتُ في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً . قال الشيخ : اليك عني ، أيها الرجل ! فأحب شيء الى نفسي ، أعزه وجوداً ، وأبعده منلاً ، »

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الحاد « أسرار خودي » . ولا أظن أن محمد إقبال اختار هذه المقطوعة ، وحلّى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور نفسيته ، وتعبر عن شعوره ؛ فقد كان يحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن « الانسان الكامل » ، فهل وجد محمد إقبال ضالته ، يا ترى ؟ وظفر بمطلوبه أم قطع من الرجاء ؟ .

وإذا كان الجواب : نعم لقد وجد محمد اقبال ضالته من الناس ، وظفر بوطره من الرجال ، فتأكدوا أنه فتح أعظم من فتح « كلبس » ، واكتشاف أجل خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد ؛ لأنه اكتشاف الانسان المفقود ، وعثور على الانسانيه الضائعة ، ولا خير في العالم - قديمه وجديده - اذا فقد الانسان وضاعت الانسانية ؛ وحاجة العالم الى انسان أشد اليوم من حاجته الى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الانسان الكامل :

ان محمد اقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الانسان المنشود ، وعرفه واتصل به ، ونراه قد هام به هياماً ، وتقنى في شعره بانسانيته وشخصيته ، فأين وجده محمد اقبال ، وكيف السبيل الى هذا الانسان الرفيع ؟

أخاف ان أفاжكم بما لا تقدرونه ولا تنتظرونه اذا اخبركم أن الانسان الكامل الذي وجده محمد اقبال ، فوجد فيه ما كان يأنشه ، من معاني الانسانية والقوة والحياة والجمال والكمال ، هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

ان هذا الجواب مفاجأة حقاً الذين يحملون للمسلم صورة قائمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع ، الذي قدمه الشاعر ، للانسان الكامل ، ولكن محمد اقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم الضالة المنشودة والصورة الكاملة للانسانية .

المسلم المثالي :

ولكنه يعني ذلك المسلم المثالي ، الذي يتأز ، بين أهل الشك والظن ، بإيمانه وبقينه ، ويبيح أهل الجبن والخوف ، بشجاعته وقوته

الروحية ، وبين عباد الرجال والاموال والاصنام والملوك بتوحيده
 الخالص ، وبين عباد الاوطان والالوان والشعوب بأفاقته وانسانيته ،
 وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على
 موازين المجتمع الزائفة وقيم الاشياء الحقيقية ، وبين أهل الأثرة والانانية
 بزهده وإيثاره وكبر نفسه ؛ ويعيش برسائلته ولرسائلته . ذلك المسلم
 الحق الذي منها اختلفت الاوضاع وتطورت الحياة لايزال الحقيقة الثابتة
 التي لا تتغير ولا تتحول ، وأما ماعده فزبد يذهب جفاءً ؛ ذلك
 المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، أما ماعده
 فشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . يقول في بيت :
 « انك أيها المسلم في العالم وحدك ، وما عداك سراب خادع ودرهم
 زائف » . ويقول في بيت آخر : « ان إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل
 ماعده في هذا العالم المادي وهمٌ وطمسٌ ومجاز » .

* * *

المسلم له وجودان :

ان المسلم له وجودان ، الوجود الانساني ، والوجود الايماني ، أما
 الوجود الانساني : فهو الوجود الذي يشاركه فيه كل انسان ، يولد
 كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ، ويجوع ويظأ ، ويشعر
 بالبرد والحر ، ويأكل ويشرب ، ويصح ويمرض ، ويموت ويحيا ،
 ويفقر ويغني ، ويزرع وبتجر ، ويعول العيال ويربي الاطفال ، ويقتني
 الاموال ، ويحكم البلاد والرجال ؛ فهو في هذا الوجود خاضع للسنن
 الطبيعية ، تجري عليه كما تجري على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ في أي
 إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنه
 يحمل اسماً خاصاً ، وينتمي الى جنس خاص ، ويلبس لباساً خاصاً
 وهو ذرة حقيرة في صحراء الوجود المترامية ، وموجة عادية تأتي وتذهب
 في بحر الكون الزاخر ، من غير ان يشعر بها أحد ، فاذا اقتصر

المسلم على هذا الوجود البشري العام وعاش كإنسان لأقل ولا أكثر ،
كان كائناً ضعيفاً فانيا ليست له قيمة كبيرة في نظر ضمير في الوجود ؛
واذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم
شيئاً كبيراً .

أما الوجود الإيماني فهو أنه يحمل رسالة خاصة ؛ رسالة الانبياء
والمرسلين ، ويؤمن بمبادئ خاصة ، ويعتقد اعتقاداً خاصاً ، ويعيش لغاية
خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ، ودعامة من دعائم
العالم ، وحاجة من حاجات البشرية ، يستحق أن يعيش ، ويستحق
أن ينتصر ، ويستحق أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب أن
يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية ، وحاجة
الكون إليه ليست أقل من حاجتها إلى الماء والهواء والنور والحرارة ،
فاذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة ، كانت
معاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق ،
التي تتكفل رسالات الانبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفل المسلم باعلانها ،
والقيام بها والجهاد في سبيلها ؛ فلولاً هو لضاءت هذه الغايات والرسالات
واصبحت سرّاً مكتوماً ؛ اذن فمركزه في العالم ، وبقاؤه كبقاء
الشمس والكواكب النيرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحول الانهار
مجراها ، وتخرب عمارت وتغير خرائب ، وتقوم حكومات ، وتنقلص
حكومات ، وتأتي مدنيات وتذهب مدنيات ، وهو قائم لا يزول ولا يحول .

المسلم حي خالد :

يعتقد محمد اقبال أن المسلم حي خالد ؛ لأنه يحمل رسالة خالدة ،
ويحتضن أمانة خالدة ، ويعيش لغاية خالدة ، يقول في بيت :
« لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ؛ لأن وجوده رمز لرسالات

الأنبياء ، وأن أذانه إعلان للحقيقة التي جاء بها ابراهيم وموسى وعيسى
ومحمد ﷺ . ويقول في بيت آخر : « المسلم رسالة الله الاخيرة »
فلا يعترها النسخ والتبديل . ولا يعني محمد اقبال أن كل فرد من أفراد
الامة الاسلامية حي خالد ، بقلت من الموت ، ويتمرد على القانون
الطبعي ؛ كيف ، وقد قال الله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد
خَلَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) وقال (أفإن مت فهم الخالدون) ، ولكن
محمد اقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الاسلام الحضم ؛ يأتي
موج ويذهب موج ، وتترامى هذه الامواج في أحضان البحر وتتلشى
في وجوده ، والبحر لا يتغير ؛ فالبحر امتداد دائم ، وتسلسل قائم
لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود تتبدل أمواجه - وهي
أفراد البشر - ولا يتبدل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد اقبال خطوة أخرى ، فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا
الكون ؛ خلق العالم له وخلق هو الله . لقد كان العلماء يتباحثون في صحة
حديث « لولاك لما خلقت الافلاك » ، ولكن محمد اقبال لانهم صحة هذا
الحديث لفظاً ورواية ، انه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الاسلام
وطبيعة المسلم ، ورسالته السامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الانساني
الواسعة العميقة ، والاطلاع الواسع على أوضاع العالم وطبائع
الاشياء ، أن المسلم الذي هو جارية لرسول الله ﷺ وخادمه ،
هو مصداق معنى الحديث ؛ فضلا عن الرسول عليه الصلاة والتسليم ،
فهو خليفة الله في أرضه . خلق لأجله العالم ، وعلّمه الأسماء ، وحكمه
في الارض ، وأرثه خيراتها وخزائنها ، وألقى اليه بمقاليدها ؛ فيجب
عليه أن يعتقد ، ويقتنع بأن العالم خلق له ، ويجاهد ويجهّد لتطبيق
هذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة . يقول في بيت : « ان العالم تراث

المؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمننا كاملاً من لا يعتقد أن العالم خلق له .

مقام المسلم مقام الامامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، وليسائر الزكب البشرى حيث اتجه وسار ؛ بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويولي عليها إرادته ؛ لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، إن مقامه مقام الامامة والقيادة ، ومقام الارشاد والتوجيه ، ومقام الأمر الناهي ، إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع أوزاره ، ويسلم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضي الله في أمره . يقول في بيت : « يقول من لاخلق له : دُر مع الدهر حيث دار وإذا لم يسلمك الزمان فسلمه ؛ وأنا أقول إذا لم يسلمك الزمان ، فصارع وحارب ، حتى يفيء إلى أمر الله » . ويرى أن المؤمن غير مأذون بممارات الاوضاع ؛ بل هو مكلف بمصادمة الاوضاع الفاسدة يرد الامر الى نصابه ، ويقيم ساقفة الدهر العشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض ، والعملية الجراحية ؛ فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والاصلاح . يقول في بيت : على المسلم ان يربي في نفسه الروح ، وينشئ في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحجارة إيمانه ووهج حياته ، وينشئ عالماً جديداً . يقول متمثلاً : « سألني ربي : هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ياربي . قال : فعطمه ولا تبالي » .

ويرى محمد إقبال ان الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة ،
والإرضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والاقزام .
يقول في بيت : « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما
المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد » . ويقول :
« اذا احسن المؤمن تربية شخصيته ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع في العالم
الا ما يرضاه ويحبه » .

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال ان المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في التاريخ
ومطلع فجر السعادة في العالم ، وانه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب
ورسول الحياة ، ومؤذن الفجر في الليل البهيم ؛ وان أذانه لا يزال صيحة
تدوي في هدوء الليل وسكون الموت ، فيعيد الى هذا العالم النائم
النعاس المتعب حياته ونشاطه ، ويؤذن بطلوع الصبح الصادق ، وانصرام
الليل القاسق . وعلى هذا الاذان الصارخ والنداء العالي ، الذي ارتفع
من جبل « أبو قبيس » قبل ثلاثة عشر قرناً ، استيقظ هذا الكون بعد
السات العتيق ، الذي غط فيه خمسة قرون وأكثر ؛ وكان نفخة صور
للانسانية الميتة والعالم المتحضر ، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الانسانية ،
واحياء الضمير البشري . يقول في بيت : « ان المؤمن اذا نادى الآفاق
بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون » . ويقول في قصيدة : « لست
أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح ، الذي يطلع على هذا العالم كل يوم ،
ولست أعلم سره ؛ ولكني أعلم أن السحر الذي يمتزله هذا العالم
المظلم ويؤلي به ليل الانسانية الحالك ، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق ان قوة المؤمن الحارقة للعادة ، الحيرة

للعقول المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه ، وباندماجه
واضمحلاله في ارادة الله . هنالك يتحول جارية للقدرة الالهية ، وقوة
قاهرة ، لاتصدها الجبال ، ولاتقف في سبيلها البحار . يقول في قصيدة ،
أنشأها في قرطبة : « ان يد المؤمن جارية القدرة الالهية ، فهي غلبة ،
حالة للعقد والمشاكل ، فتاحة للابواب المقفلة ، لبة صناع حاذقة . إن
المؤمن جسده من تراب وفطرته من نور ؛ عبد متخلق بأخلاق مولاه ،
قلبه غني عن العالمين » . ويقول على لسان القائد الاسلامي الكبير طارق
ابن زياد فتح الاندلس ، وهو يدعو لاصحابه العرب بالنصر وينساجي
ربه . يقول : « ان هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون ، الذين
لا يعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطمحون الى فتح العالم واخضاعه .
اذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، واذا ركلوا برجلهم البحر
انقلق . انكسحت الجبال وتقبضت بمهابتهم ؛ انهم عرفوك وأحبوك ،
فزهدوا في العالم ، واستغنوا عن الدنيا . لا يطلبون إلا الشهادة في
سبيلك ولا يهدفون بجهادهم الى الفتح والغنائم . لقد أفردت رعاة الابل
بنعمتك ، وميزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر ، وأذان السحر . لم
يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجع للانسانية المظلومة ؛ وفي قلوب
هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدة وجد العالم مآربه » . بل ان الشاعر
يتقدم خطوة ، ويقول : « ماظنك بقوة ساعد المؤمن ! وهو بنظرته
يقلب الاوضاع ، وبدعوته يرد القضاء » . والمطلع على التاريخ يصدق
ما قاله محمد اقبال ، فقد هزى المسلمون المؤمنون في عصرهم الاول من
الجبال والبحار ، وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك
وعقبات . وقصص سعد بن ابي وقاص وخالد بن الوليد والمثنى بن
معاوية الشيباني وعقبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفي وموسى بن نصير
زياد شاهدة على صدق ما قاله محمد اقبال .

المسلم لا ينحصر في الاوطان والشعوب :

ويرى محمد اقبال ان المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المسكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالانسانية العامة ، في مساحة زمانية شاسعة ، كمساحة التاريخ الاسلامي ، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الاسلامي . يقول في قصيدة قرطبة : « ان المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور . ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرة في بحر المتلاطم . عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ . هو في كل عصر ساقى اهل الذوق ، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق . شرابه رحيق دائماً ، وسيفه ماض في كل معركة » . ويعتقد محمد اقبال ان العالم كله وطن للمسلم . يقول في بيت : « المسلم الرباني ليس بشرقي ولا غربي ، ليس وطني دهلي ولا اصفهان ولا صمرقند ؛ انما وطني العالم كله » . ويعتقد محمد اقبال ان المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له . يقول : « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء ، أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ، ولاموه على فعله ، وقالوا له : لقد قطعت بنا الحبال ، فكيف نرجع الى بلادنا . فوضع طارق يده على السيف ، وقال : انا لا أفكر في الرجوع ، وسنبقى هنا ، ونتخذة وطننا ؛ فان كل ما كان لله من أرض ، وبلاد ووطن لنا . لافرق في ذلك بين العجم والعرب ، والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد اقبال ان المسلم يجمع بين المتناقضات من الاخلاق والصفات ؛ وماهي بمتناقضات ، ولكنها ظلال صفات الله ، ومظاهر اخلاق الله . فهو في تسامحه ، ورحابة صدره ، وكثرة صفحه قد تخلق

بخلق « الغفار » ؛ وفي شدته في الدين ، وغضبه للحق ، وثورته على
 الباطل قد تخلق بخلق « القهار » ؛ وهو في نزاهته ، وعفته ، وطهارة
 خبيره قد تخلق بخلق « القدوس » ؛ وفي صلابته اذا تصلب ، وشدة
 مكيمته اذا ابي ، وشدة بطشه اذا حارب تخلق بخلق « الجبار » ،
 ولا يكون المثل الكامل لدينه ، وصورة صادقة للاسلام ، حتى يجمع
 بين هذه الاخلاق المتنوعة ؛ فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة ،
 والصلابة والمرونة ، والعفة والنزاهة ، ويكون في ذلك آية من آيات
 الله ، ومعجزة من معجزات الرسول . ثم يقول الشاعر : « ان المؤمن
 هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم ؛ به يعلم رضا الله وسخطه ،
 وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره ، فهو حسن ، وما
 استقبحه فهو طائش ؛ وفي عزائه تتجلى ارادات الله ، وهو القرآن
 الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه . ثم ان حياته متوافقة متشابهة
 كالطبيعة ، فالصبح يطلع كل يوم ، والليل يتبع النهار ، لا تخلف فيه ،
 ولا تناقض . وهو صاحب معان كثيرة ، ونعمة واحدة ، فهو
 كسورة الرحمن في القرآن ، تتجدد معانيه وتكرر فيه آية « فبأي
 آلاء ربكم تكذبان » . وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يتحف
 كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كل عصر بنوره وضائه ،
 ويضرب على وتر واحد ، ويكرر رسالة الانبياء ، ويقول لكل جيل :
 « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من دونه غيره » ، فهو كالصبح جديد وقديم ،
 فهو في جدته ليس أجداً منه ، وهو في قدمه ليس شيء أقدم منه ؛
 هو قديم لكنه يتجدد به العالم ، وتتجدد به الكائنات ، وتنتعش به
 القوى ، وتستيقظ به الاجسام والقلوب ، والعقول ؛ ثم جديد بنفسه ،
 تتجدد قواه ويتجدد نشاطه ، وتتفتح قريحته مع العصور ؛ عالمه سيار ،
 وعقله مبتكر ، ونفسه طموح ، وهمته وثابة ، وهو كالطر كل قطرة

غير الاولى ، ولكنها قطرات مطر ، وكلها تحيي الارض ، وكلها تثبت
النبات ، وكلها تسقي المزارع والاشجار ، وكلها تفتح الازهار ، وكلها
تكون الانهار ، وهو معنى قول النبي ﷺ « أمي كالطير لا يدرى
أأوله خير أم آخره » .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً :

ويقول محمد أقبال : « ان المسلم كالشمس اذا غربت في جهة »
طلعت في جهة أخرى فلا تزال طالعة ، . وقد صدق ، فإن الاسلام
لم ينكب في ناحية من نواحي العالم ، ولم يخسر في جانب دولة إلا
وقامت له دولة في جانب آخر ؛ ولم تسقط له راية إلا وخفقت له
راية أخرى ؛ ولم يغب له نجم ، إلا وطلع له نجم آخر . لقد كانت
خسارة الاندلس الاسلامية كارثة كبيرة ، ومصائباً عظيماً ، ولكن
عوض الاسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم ، هي دولة آل عثمان
في تركيا قامت في نفس القارة الاوربية ، وجشت على صدر الدول ،
والامم التي انتزعت الاندلس الاسلامية ، واجلت المسلمين من وطنهم
العربي الاسلامي . وكان سقوط غرناطة ، وأوج الدولة العثمانية ، في عهد
سليمان القانوني ، حادثين في عصر واحد . ونكب العالم الاسلامي ،
ونكبت بغداد بغارة التتار ، وانطمست معالم الحضارة الاسلامية ،
وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن في نفس هذه الفترة كانت
الدولة المسلمة في الهند تنسج وتزدهر . وأصيب العالم الاسلامي بهزات
عنيفة ، وقواصم مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الاوربيين ،
فقد اقتسمت الدول الاوربية تراث الدولة العثمانية كإل سائب ، واغتصبت
ممتلكاتها في افريقيا ، وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن
تبع هذا كله اليقظة الاسلامية الهائلة ، والوعي السياسي القويم ، والطموح
الى الاستقلال والحرية ، والحركات الاسلامية المختلفة التي كان يجيش بها

العالم الاسلامي من اقضاء الى اقضاء . ونكب المسلمون في العهد
الاخير نكبات عظيمة في الشرق الاقصى والاطلس ، وخسرت الدول
العربية فلسطين العربية الاسلامية ، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين
دولتان فتيتان في الشرق ، احدهما دولة باكستان ، والاخرى أندونيسيا .
وهكذا لم يزل التاريخ الاسلامي متارجحاً بين الأسفل والاعلى ؛ فسا
تحفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر ، كالارجوحة تماماً ، ولم
تتوار شمس في أفق إلا وبزغت في أفق آخر . وذلك لأن الاسلام
رسالة الله الاخيرة التي لا رسالة بعدها ، والمسلمون هم الامة الاخيرة ،
التي لا أمة بعدهم ؛ فاذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ، واذا هلكوا فقد
غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

★ ★ ★

برلمان ابليس

في ديوان محمد إقبال الأخير « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) قصيدة بدیعة وصف فيها وصور جلسة برلمانية ؛ حضرها وتناقش فيها شياطين العالم وركلاء النظام الابليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدد مهمتهم في العالم وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم . وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « ابليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبعد نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه . وأدلى برأيه الحضيف المؤسس على الدراسة الواسعة العيقة . وهو يتلخص في : أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفو لنظامه ، وهي الشرارة التي تتحول فارقاً بسرعة ؛ فالمصلحة والرأي أن يركز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه وتنويعه . وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يفيد الاطلاع عليه ، والبكم يحضر الجلسة :

« ان الشياطين وزملاء ابليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الابليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار

قد أهدت بهم وهددت نظامهم ، وجللوا خطيئتها وتناذروا شرها ؛
فذكر أحدهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني :
لا حول لك أمرها ، فانها ليست الا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا
الملوكية اللباس الجمهوري ، إذ رأينا الانسان بدأ ينتبه ، ويفيق ،
ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لانحمد عاقبتها ، فألميناه
بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الامير والملك . ان الملوكية لاتحصر
في وجود شخص تركز فيه الملوكية ، وفرد يستبد بالسلطان ، إنما
الملوكية أن يعيش الانسان عيالا على غيره ، مستشفراً الى متاع غيره ،
سواء في ذلك الشعب والفرد ؛ أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهه
مشرق وضاح ، وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان .

فقال الآخر : لا بأس اذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا
يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي
يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحمل عند
أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ ، أنه أقام العالم وأقعدته ، وأثار
العبيد على السادة ، حتى ترعزت مباني الامارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ان سحرة
أوربا ، وان كانوا يريدون التخلص من « مزدك » (الزعيم
السامري اليهودي الذي هو نسخة من « مزدك ») الزعيم
الفارسي (الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنصر البعث
وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالروح (أعلام
أرض جعلت بطائحا) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ،
وهامي قد استفعلت وتفاقم شرها ، وها هي الارض ترجف بهول
فتنة الغد . ياسيدي ! ان العالم الذي كنت تحكمه سينقض عليك ،
وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : اني أملك زمام العالم ،
وأصرف به كيف أشاء ، وسيروى العالم عجباً ، اذا حرشت بين الامم
تهارشت تهارش الكلاب ، وافتس بعضها بعضاً فعل الذئب ؛ واذا
همست في آذان القادة السياسيين ، وأساففة الكنائس الروحانيين فقدوا
رشدهم ، وجئن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أن الحرق الذي
أحدثته الفطرة بين الانسان والانسان لا يرفؤه المنطق المزدكي (يعني
الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ،
والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً ، فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح
كامنة في رمادها ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ،
وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ؛ لا يخفى على الخبير المتفرس أن
الاسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجعل أن هذه الامة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها
فتنت بالمال ، وشغفت بجمعه وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خبير
بأن ليل الشرق داج مكفر ، وأن علماء الاسلام وشيوخه ليست
عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ؛ ولكني
أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقضى مضجعها ، وتوقف هذه
الامة ، وتوجهها الى شريعة محمد ﷺ ؛ إني أحذركم وأنذركم من دين
محمد ﷺ ؛ حامى الذمار ، حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة
والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح
والجهاد ؛ يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار
استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على

صعلوك ، يزكي المال من كل دنس ورجس ، ويجمع له نقياً صافياً ،
ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم ، أمناء لله ، وكلاء
على الاموال ؛ وأي ثورة أعظم ، وأي انقلاب أسد خطراً بما أحدثه
هذا الدين في عالم الفكر والعمل ، يوم صرخ : أن الأرض لله ،
لا للملوك والسلطين .

فابذلوا جهدكم ، أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ،
وليسهكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الايمان بدينه ،
فخير لنا أن يظل مشغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب
الله والآيات . اضربوا على أذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر
طلاسـم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ؛ واجتهدوا أن يطـرل
ليله ويبطىء سحره . اشغلوه يا اخواني ! عن الجد والعمل ، حتى يخسر
الروهان في العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا
العالم ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه واستخفافاً لحطـره .
يا ويلتنا ! يا شقوتنا ! لو انتهت هذه الأمة ، التي يعزم عليها دينها
أن تراقب العالم وتعهـه (١) .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلا نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم ؛ وكانت مؤامرة مبيتة
ضد الاسلام ، وخطة منظمة ضد أجياله القادمة ؛ فأكبر ما اهتموا به
هو إطفاء الجمره الإيمانية ، التي لا تزال كامنة في الرمد ، ونجريد
المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية والعاطفة الاسلامية ،
التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحمل الشدائد والمكاره ، في

(١) ماذا خسر العالم بالمحطات المسلمين ص ٢٣٠ - ٢٣٣

سبيل الله ، والثورة على الباطل ؛ وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده . يقول محمد اقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس الى تلاميذه السياسيين) : « إن المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد ﷺ من جسده ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً من الفقر ، شديد الخوف من الموت ؛ وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني يتمكنون بذلك من إجلاء الاسلام من الحجاز واليمن ؛ ان في الأفغان غيرة دينية ، وعلاجها أن يغفو العالم الديني من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطرق للوصول الى هذا الهدف هو التعليم ، الذي يجرّد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الاسلامية والعقلية الاسلامية ، وينشئ فيه طبيعة النفعية والأبيقورية ، وطبيعة التهام الحياة ، وانتهاب السرّات ، وتقديس المادة ورجالها ، وعدم الاستقامة الحلقية والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشك في الدين ؛ لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الإله آبادي : أن فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني اسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم الى طرق سافرة ، ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللعنات ؛ فكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني اسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ؛ ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار ، وبعد النظر ، ودقة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني اسرائيل ، ينشئ الجيل الاسرائيلي الجديد كما يشاء ، ويسبك العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع إمكاناً لنشأة شاب مثقف ، يشعر الشعور الديني ، ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ويهتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات والدرجات ؛ لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوء الأحداث ، ووصل الى غايته في سهولة ويسر ،

وهدهو وسلام ، وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حاميه العلم ، و « مربي الجيل ، وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الديني في بلاد الاسلام ، وخمدت جذوة الايمان ، وفقدت البطولة الاسلامية ، وروح الجهاد ، وفشت النفعية وجمعت المادية ، يقول الشاعر ، وقد ساح في كثير من البلاد الاسلامية والعربية : « لقد تجولت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لبك كثيرين تفيض بهم البلاد ؛ والمتشبهين بروح محمد ﷺ كالكبريت لاحمره العنقاء المغررب » . ويقول في قصيدة قالها في فلسطين : « لأرى في بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك سمو الفكري الذي كان يمتاز به العجم ، لاتزال دجلة والفرات متعطين الى بطل من ابطال الاسلام ، ولكني لأرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألم لذلك أشد الألم ، ويبكي دماً ؛ وشعره يفيض بهذه الأثبات والدموع يقول في أبيات : يا وارث التوحيد الاسلامي لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الايام ، اذا نظرت الى أحد ، ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ؛ وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لانهمل روحاً ولا تجذب نفوساً . ويقول في موضع آخر : « ان السجدة التي كانت تهتز لها روح الارض لقد طال عهد الخراب بها ، واشتاق اليها المسجد ، كما تشتاق الارض الجديبة الخاشعة الى المطر ؛ لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الاذان الذي ارتعشت له الجبال بالامس » . ويقول في بيت : « لقد فقد المسلم

لوعة القلب ، وانطفأت نار الحياة فيه ، فأصبح ركاماً من تراب . . ويقول :
« لم أر في محيطك أيها المسلم لؤاؤة الحياة ، قد بجنت عنها موجة موجة ،
وتفقدتها صدقة صدقة . . ويرى محمد اقبال أن مصدر هذا التدهور هو
القلب الذي خرب من الايمان وشعلة الحياة . يقول : « لقد فقد المسلمون
صورة الحب الصادق ، ونزف منهم دم الحياة ، فأصبحوا هيكلاً من عظام ،
لا روح فيه ولا دم ؛ الصفوف زائفة ، والقلوب مضطربة ، والسجدة
لالذة فيها ؛ ذلك لأن القلب خال من الحنان . »

البقطة الاسلامية :

هذا ولكن محمد اقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التي أصيب بها
العالم الاسلامي أفضت مضجع المسلمين ، وأيقظتهم ، ودب فيهم ديب
الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الاسلام » : « اذا رأيت
النجوم شاحبة منكدرة تخفق ، فاعلم أن الفجر قريب ؛ هاهي
الشمس قد ذر قرنهما من الأفق ، وولى الليل على أدبارها ، إن عاصفة
الغرب قد أعادت المسلم الى الاسلام ، فإنما تتكون الآلىء في البحر
المتلاطم الهائج ، لقد دب ديب الحياة في الشرق ، وجرى الدم القاتر
في عروقه الميتة ؛ وذلك مر لا يفهمه ابن سينا والفارابي . إن المسلم
سيُمنح من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي .
ويقول في بيت : « ان اقبال ليس يائساً من تربته الحقيمة ، فإنها اذا
سقيت ، أنت بمحاصل كبير . »

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد اقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ، ونثرت
ثمناتها ، وقد شاخت وهرمت ، وأبنت كالفاكهة وحانت قطافها ؛
« أن العالم القديم ، الذي حوله مقامرو الغرب الى حانة الفساد

والمقامرة ، منهار قريباً ، والانسانية تنخفض بعالم جديد ، ويعتقد محمد اقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصيبه ، إلا من بنى للانسانية البيت الحرام بالأمس ، وورث ابراهيم ومحمد ﷺ في قيادة العالم وإرشاده ، فيُهب محمد اقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده بالله أن يقوم ، ويمسح النوم من عينيه ، فقد ظهر الفساد في البر والبحر ، وعات الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد اصلاحها ، وخرّبوا العالم وملؤوه ظلاماً وظلمات ، وشروراً وويلات ؛ وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ ولكن الاوربيين قد حولوها الى خمار ، وبيت فسق ودعارة ، ومكان نهب وغارة ؛ وقد آن لباني البيت الحرام وحامل رسالة الاسلام أن يقوم ، وبصلح ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيت الى قواعد ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالم من جديد .

* * *

إلى الأمت العربية

بذكر اقبال الامة العربية عهداً قديماً قبل البعثة ، حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهايم التي لا هم لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثل السيف المغلول يتراءى للناس لامتاً قاطعاً ، ولكن لبست له ظبة فهو لا ينفع ولا ينفع به ، فيقول الشاعر :

« ايها العرب ! قدمن الله عليكم ، اذ جعلكم مثل السيف البازي أو أحده منه . وكنتم ، فيما قبل ، ترعون الابل في الصحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ؛ ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلا عن الابل ، فاصبحتم من مالكي أعنتها ؛ فلو أقسمت على الله لأبركم . وهنالك دوت تكييواتكم وصلواتكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم ، بين الخافقين ؛ فارتج بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك الغزوات . »

وبعد ما يمدحهم الشاعر ، ويذكر حماسهم الإسلامية ، وغضبهم المضربة في الله ورسوله ، ويبدي فرحه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن ، والتألم ، يرى من خمود العرب ، بعد النشاط ، والاحجام

(١) كتب هذا المقال الاستاذ سعيد الندوي بتوجيه من المؤلف ، وقد تناولها بالحذف والإضافة ، ورأي ان يضمها الى هذه المجموعة ، ليطلع القراء على رسالة اقبال الى العرب خاصة .

بعد الاقدام ، والفرقة بعد الوحدة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع
بعد القيادة . ويقبل اليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفأ على هذا الجود والجود ، أما العرب ! ألا ترون الى الامم
الاخري ، كيف تقدمت وسبقت ؟ أما أنتم ، فما قدرتم قدر هذه
الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمة
واحدة ، أمة الاسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ،
حزب الله ، فأصبحت أحزاباً ، لقد فرقتم جمعكم ، ومزقتم شملكم ،
وانقسمتم على أنفسكم . »

« اعلوا ايها السادة ! أن من ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد
الثقة بنفسه مات ومُحي من الوجود ؛ ومن فرق من معسكره ،
وانحاز الى صفوف الاعداء ، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان
والشقاء ، والطرود والجلاء ، ألا إنه لم يجن عدو مثل ما جئتم أنتم على
أنفسكم ، ولم يسيء أحد الى أحد إساءة تنكم الى أممكم ؛ انكم آذيتم روح
رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألة متوجعة ، شاكية مستغيثة . »

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسومة ،
وحبال منصوبة ، وهو شديد المعرفة بهم ، قد عاش فيهم ودرسهم
وخبرهم ؛ فهو يتألم ، إذ يرى في الامة العربية من يُحسن الظن بهم ،
ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفض المشاكل ؛ فيرسل صيخته
وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إياكم والركون الى الافرنج ، والاعتماد
عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا الى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم .
ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزر إلا ان تطردوهم عن منهلكم ، وتزدروهم
عن حوضكم ، إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركها سليبة

حزينة ، لا تملك شيئاً ، انها مزقت وحدة العرب ، واقتسمت تراثهم ،
ان العرب لما وقعوا في حبالهم ، تنكر لهم كل شيء ، وقسا عليهم
هذا الكون ، ولم يجدوا من يرثي لهم ويرفق بهم ، وضافت عليهم
الارض بما رحبت وضافت عليهم أنفسهم .

وبعد ما يفيض الشاعر في بيان شرور الافرنج ومكائدهم ، ويجذو
العرب من الانسياق اليهم والوقوع في شركهم ، يقبل الى تشجيع
العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« ان الله قد رزقكم البصيرة النافذة ولا تزال فيكم الشرارة كامنة ،
غقوموا أيها العرب ! وردّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى ،
ان منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم
والاخلاص واليقين ، وما دامت ضميركم أمينة للسر الالهي ، فباعتقاد
البادية ! أنتم الحراس للدين ، وأمين الله في العالمين .

ان غريزتكم العربية الاسلامية ميزان للخير والشر ، وأنتم ورثة
الارض ، اذا تألق نجمكم في آفاق السماء أفلكت نجوم الآخرين ، وطوي
بساطهم . لن تسعكم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيبتكم في وجودكم ،
الذي يسع الآفاق . كونوا أصرع من العاصفة وأقوى من السيل ،
حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح . »

« ليت شعري ! من خلفكم في الحياة ؟! إن العصر الحاضر وليد
نشاطكم وكفاحكم ، وصنيع جهادكم ودعوتكم ، وما زلتُم ساداته
وولاته حتى أفلت زمامه منكم ، فتبناه الغرب واملكه ، ومن ذلك
اليوم فقد هذا العصر ، وهذا المجتمع الانساني ، شرفه وكرامته ، واصبح
تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدين . »

فيارجل البادية ! وباسيد الصحراء ! عُد الى قوتك وعزتك ،

وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عنان التاريخ ، وقد قافلة البشرية الى
الغاية المثلى . »

وهنا نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها الى روح رسول الله ﷺ
ضياح الأمة الاسلامية ، وانطفاء شعلة الحياة والايان في نفوس العرب ،
ويشكو وحدته وغربته في هذا المجتمع الاسلامي البارد الجامد ، ويناجيه
مناجاة من قام بين يديه ، وأذن له في الكلام . يقول :

« لقد تشتت شمل أمتك يا محمد ! يا رسول الله ، فإلى أين بلجأ
المسلم الحزين وإلى من يأري ؟ لقد مكن بحر العرب المضطرب
المانح ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذي عرفت
به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأين أجد من يساعدني على آلامي
وأحزاني ؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ،
ويطوي السفر البعيد ، في هذه الجبال والمهامه ، وقد ضل سبيله ،
وقد زاده ، وانقطع عن الركب . بالله ! قل لي ماذا يصنع حامل
دعوتك ، المؤمن برسالتك ، وأين يجد زملاءه ورفقته ؟ »

ويؤلم الشاعر ، أن يرى العرب لا يزالون ينظرون الى الأوروبيين
الانجليز والأمريكيين ، كأصدقاء مخلصين وأعوان منجدين ؛ يحاولون
لهم مشكلة اللاجئين ، ويردون اليهم أرض فلسطين ، مع أنهم لا يزالون
تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسي والاقتصادي والصحي ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا أخواني العرب ! أن النار التي شغلت الزمان
وجهرت التاريخ ، لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم . صدقوا
أيها السادة ! إنه لادواء لكم في جنيف ولا في لندن ؛ لأنكم تعلمون
أن اليهود لا يزالون يتحكمون في سياسة أوروبا ، ولا يزالون يملكون
زمامها . ان الامم لا تذوق طعم الحرية والاستقلال حتى ترتبي فيها
الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرف لذة الظهور . »

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلمظ واعتذار :

« معذرة يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهندي ^(١) أن يخاطبكم
ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا : أيها الكرام ! هندي ونصيحة
للعرب ؟ انكم كنتم يامعشر العرب أسبق الأمم الى معرفة حقيقة هذا
الدين ؛ وانه لا يتم الانصال بمحمد ﷺ إلا بالانقطاع عن « ابي لهب » ؛
وانه لا يصح الايمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت ؛ كذلك لا تتم الفكرة
الاسلامية الا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية . ان
العالم العربي ، أيها السادة ! لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالثغور
والحدود ، وانما يقوم على أساس هذا الدين الاسلامي وعلى الصلة
بمحمد ﷺ » .

* * *

(١) لا يفرق عن البال ان محمد اقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، قبل ان
تكون هناك جنسية باكستانية .

في جامع قرطبة

وقف محمد اقبال - في عام ١٩٣٢ م ، الذي زار فيه اسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود - في جامع قرطبة العظيم وقفه مؤمن شاعر ، وقفه خاشع أمام الايمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية ، التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد الثانية الجميلة لعقيدته وعزمه ؛ خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ، الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفن الاسلامي العربي الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كل ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى ان هذا المسجد العظيم صورة للمسلم في هذه الارض الخنون ، تجلت فيه أخلاق المسلم وصفاته ؛ علو في الهمة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراعة في النية ، وثبات على الحق ، وإعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والانفة والتواضع .

وتذكر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ؛ تذكر - والشيء بالشيء يذكر - بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوي في الجو ، وكانت أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعون ؛ ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الامة ، فليس له نظير في الأصوات

والمتنقات والاعلانات والرسالات ؛ ذلك الاذان الذي كان ينجش له الكون ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ؛ ذلك الاذان الذي تنفس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ، وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا ؛ وما بين العالم اليوم ، وبين الصبح الصادق ، إلا هذا الاذان الصادق الذي يتنادي به المؤمن الصادق . وتذكر بهذا الاذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويلبغها هذا الاذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامناً إيماناً وبقيناً بأن الامة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة - التي كتب لها الخلود - لا تموت ولا تقنى .

حرك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الاذان منذ قرون ، حرك كل ذلك في إقبال الايمان والحنان ، والأحزان والألحان ؛ وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » ، وقد كتبها في اسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد اقبال أن هذا العالم خاضع للفناء ، وأن الآثار التي تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التي تنتجها العبقريّة الانسانية بين حين وآخر كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات ، إلا ذلك الأثر ، الذي أكمله عبد مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوي الخالص^(١) - والحب هو أصل الحياة الذي حرم

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه اقبال هي الماطفة التي تسو على المادة والمدة ، وهي حقيقة جامعة بين الايمان والحنان ، لاصلة لها بالفرام والماطفة الجنسية .

الله عليه الموت - إن الدهر سربع ورفيق في سيره ، وهو تيار عنيف لا يقف في طريقه شيء ، والحب هو القوة الوحيدة التي تقفه لأنه سيل ، والسيل لا يمكنه إلا السيل ؛ ان الحب غير خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصور ليس لها اسم في لغتنا ؛ الحب هو الذي تجلّس في الرسائل السماوية وفي الاخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور والسرور ونشوة الخور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ؛ الحب قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الاحزاب ، فله أطرار وأدوار ؛ وهو رحالة لا يزال في سير وانتقال ، وحلّ وتوَحُّل ، وله منازل ومقامات يمر بها ويخلفها وراءه ؛ هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعر العظيم الى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كُتِب لها الخلود ، فهي لا تعرف الزوال والانتقراض ، ان البدائع الفنية اذا لم توافقها العاطفة ولم يسقها دم القلب - الحب - أصبحت مصنوعات سطحية من لون أو قزميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، ان المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحب ، ولا تقوم إلا الى على العاطفة والاخلاص ؛ الحب هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفاق حنون للبشر ، فاذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت ، واذا تجردت منه القلوب الانسانية جمدت وماتت . »

ويقول ، في عقيدة مؤمن ، ودلال شاعر محب : « إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الايمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة

الاحزان ، إن الانسان في تكوينه وخلقه قبضة من طين لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدرأ لا يقل عن العرش كرامة وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه وحمل أمانة الله ، ان الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لها تلك اللوعة واللذة التي امتاز بها سجدود الانسان ؟!

وهنا يتذكر محمد اقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكر أنه هندي النجار ، وأنه من احدى بيوتات « البراهمة » ، ^(١) ويتذكر أنه أمام أثر إسلامي عربي صميم قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! الى هذا الهندي - الذي نشأ بعيداً عن مركز الاسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعُباد الأصنام - كيف غمر قلبه الحب والحنان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسده ومشاعره التوحيد والايان ! »

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالامة الاسلامية العظيمة ، التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ؛ فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما يحكم البنيان ، كثير الفروع والاعصان . ويلتفت الى المسجد ، فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلا في بادية العرب . ويرى شرفاته مشرقة بنور دهبها ، ومنازله العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ومهبطاً للرحمة الالهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « ان المسلم حي خالد ، لا يزول ولا ينقرض لانه يبلّغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها ابراهيم وموسى ، وجاء بها النبيون ؛ وقد قضى

(١) أصله من صلاة برهية كشميرية تسمى « سبرو » أصل جده الأعلى قبل مائتي سنة .

الله بخلودها وبقائها ، فكيف يزول وكيف تنقرض الامة ، التي حملت هذه الامانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة !»

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الامة التي يمثّلها هذا المسجد، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول :
« ان المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف افقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالاته ومملكته الشرق والغرب ؛ فليست دجلة في العراق ، ودانوب في اوربا ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الاعظم . إن له عصوراً في التاريخ لا ينضي منها العجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة او الاستغراب . هو الذي أمر العصر العتيق - العصر الجاهلي - بالرحيل وافتتح العصر الجديد . انه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الايمان والحنان ، لسانه ابن وعسل ، وسيفه علقم وحنظل ؛ يعيش في ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد ؛ كلما اشتد به الخطب ، ، وعضته الحرب التجأ الى إيمانه واعتماده على الله . »

ويقبل على المسجد ، يتحدث إليه ويناجيه ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سر المؤمن ، ومثّلته في العالم ، وصوّرت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقّة التي يمضي فيها ليله ؛ صوّرت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السامي ، ومسرّاته واشواقه ، وتواضعه ودلاله . »

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموه وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : ان يد المؤمن هي جراحة القدوة الالهية ، فهي غلاية ، فتاحة ، قاهرة ، ناصرة . أصله من تراب ، وفطرته من نور ؛ هب تخلق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين . آماله ومطامعه قليلة ، وأهدافه

ومطامحه رفيعة جليلة ؛ ألقى عليه الحب وكُسي المهابة والجمال . رفيق
رفيق في الحديث ، قوي نشيط في الكفاح ، تزيه بريء في السلم
والحرب . إن إيمانه هو نقطة الدائرة ، التي يدور حولها العالم ، وكل
ماعداه وهم وطمس ومجاز . انه الغاية التي يصل اليها العقل ، ولب لباب
الايان والحب ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها .

ويقبل مرة ثانية على المسجد ، فيخطبه في اجلال وإكبار ،
ويقول : « يا مثابة هواة الفن ! ويا مقصد رواد الجمال ! ويا مجد الدين
الاسلامي ! لقد سميت بك أرض الاندلس ، وتقديست في أعين المسلمين .
انك فريد في الفن والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب
المؤمن . أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب
« الخلق العظيم » وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم ،
على أن حكومة أهل القلوب خدمة وزهادة ، وليست حكماً ولا
ملكاً . هؤلاء العرب المسلمون ، الذين كانوا مربى الشرق والغرب ،
وكانوا أصحاب عقول حسيمة ، وبصيرة نافذة ، يوم كانت أوروبا تتسكع
في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ؛ والذين لاتزال في الشعب الاسباني ،
بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمال شرقي .
فتكثروا فيهم عيون المهى ، ولاتزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال
الرياح في الوادي تحمل نفحات اليمن ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب اسبانيا - الاندلس الاسلامي المغصوب - ، فيتغنى بأرضها
التي نطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أن أجواءها لم تسمع
الأذان من قرون . ثم يذكر مآمر على العالم المتبدن من تقلبات وثورات ،
ويتشوق الى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الاسلامي ، فيقول : « لقد
شهدت ألمانيا ثورة الاصلاح الديني ، التي عفّت الآفار القديمة والتقاليد

العتيقة في أوروبا ، فجعدت أوروبا المسيحية عصمة القسوس والبابوات ،
وتحور الفكر الاوربي ، وتحركت سفينته في يسر وسهولة . وشهدت
فرنسا الثورة الكبيرة ، التي اضطربت لها أوروبا اضطراباً . وأصبح
الشعب الطلياني - الرومي - شاباً فتياً بلذة التجديد ^(١) . هكذا
الروح الاسلامية مضطربة قلقة ، تطلب انتفاضة جديدة ؛ ولكن متى
ذلك ؟ انه سر من أسرار الله ، لايفصح به اللسان . والعالم يتمخض
بجوادث جسام ، فلا يستطيع أحد ان يتكهن بالمستقبل . ويخاطب
نهر قرطبة « الوادي الكبير » ، ويقول : ان على شاطئك ، أيا النهر
العزير ! رجلا يرى حلاً لذيدا ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لايزال
في طيات الغيب ؛ يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ،
ولكنها لانزال محجوبة عن أعين الناس . لو كشفت الغطاء عن وجه
هذا العالم الجديد ، وبحث ما في صدري من أفكار واسرار ، لثقت ذلك
على أوروبا ، وفقدت رشدها وجن جنونها »

ثم يعود مرة ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الامم والشعوب ،
والحاجة الى الثورة على الاوضاع الفاسدة ، ويقول : « كل حياة لايتجدد
فيها ولا ثورة أشبه بالموت ، ان الصراع هو حياة روح الامم . ان أمة
تخاسب عملها في كل زمان ، سيف بتار في يد القدر ، لايقاومه شيء
ولا يقف في وجهه شيء ^(٢) » .

ويختتم محمد اقبال قصيدته البديعة ، بكلمة حكيمة مأثورة ، مبنية
على تجارب واسعة ، ودراسات عميقة ، واستعراض واسع للأدب ،
والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني
روح النخوة ، والطموح ، والاعتداد بالنفس ، والقومية الرومية .
(٢) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية .

« ان كل مأثرة وكل إنتاج ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص ،
وجدير بالفناء والزوال السريع ، وكل رنة أو نشيد لم يدُم له
القلب ، ولم تتألم له النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبت والتسليه ،
ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الافكار » . .

وهذا هو سر الخلود والبقاء للآداب والافكار والانتاج ، وهذا سر
نقاة الادب الجديد ، الذي يولد سريعاً ويموت سريعاً ، وهذا هو
سر التأثير والخلود في شعر اقبال وانتاجه .

فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا ؟

* * *

في أرض فلسطين

نحركات السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الاسلامي المنعقد في القدس عام (١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م) ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس . ولم يزل الشروق مصدر مرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان . فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد اقبال ، الذي جاء من اوربا يمثل الهند الاسلامية في المؤتمر الاسلامي ، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخر بنظراته - التي يحتفظ بها الشعراء - في سبيل القلب ، فكل نظرة تضع في جمال الطبيعة توجه الى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريتة » بالثور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهباً الجو ، وتوفرت الاسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته . فقد غطت الجو " سحائب ذات الالوان ، واكتسى جبال فلسطين بطيلسان جميل ، زاهي اللون ، وهب النسيم عليلابليلا ، وهفت اوراق النخيل مصقولة مغسولة بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال في نعومتها وصفاءها حريرا . ورأى الشاعر العظيم آثار نيوان انطفأت قريباً ، وأثافي (١) منشورة هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخيمة »

(١) الأثافي المجاورة التي توضع عليها القدور .

خربت في هذا الصحراء بالأمس القريب ، تخبر بالقوافل التي أقامت ثم
ظلمت . وطاب المكان والزمان للشاعر ، وسمع كأث منادياً من
السماء يحثه على أن يلقي فيه عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته (١) .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه
الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر ، وهاجت
قريحته ، وتحرك الحب الدفين ؛ ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن
وتظهر الكوامن ، فيتذكر الانسان أحب شيء إليه فيحن إليه ، ويتمثله ،
ويتغنى به . وقد حل « الاسلام » وحلت الأمة الاسلامية في قلبه محل
الحبيب الاثير ، وسيطر حبه على مشاعره ؛ فما كان من الشاعر المؤمن
إلا أنه تذكر « حبيبه » وتغنى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه
عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً ، وبستاناً من النور خالياً
أجدد لنا طيب المكان وحسنه منى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى ان ركب الحياة بطيء
لابسائه في افكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى ان العالم
عتيق سائب ، وفكره « الاسلامي » جديد فتي ؛ ورأى أن العالم
قد تجددت فيه أصنام وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم
« القومية » و « الوطنية » ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .
وقد تسربت هذه الوثنية الى العالم الاسلامي والعربي ؛ أفليس العالم في
حاجة الى ثورة ابراهيمية جديدة ، الى كسر أصنام ، بدخل في هذا
الميكمل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟ .

وسرّح طرفه في العالم الاسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل

(١) الوصف للمكان والمنظر لاقبال ، ثقلناه الى العربية في لفظنا .

والعاطفة . رأى العالم العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ؛ ورأى ان النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ، وينور كاللث ، ويثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته . ورجا العالم الاسلامي ان يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجيء العالم بصراحته وشجاعته ؛ وتطلع العالم الى الحجاز - معقل الاسلام وعرين الأسود - فما كان منه لسعاف وانجاد ، ولم تتجدد معركة كربلاء ، على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الانسانية الى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الاسلامي الى بطله الجديد .

وهنا شعر محمد اقبال أن السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الاسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول : « لا بد أن يعيش العقل والعلم والقلب في حضانة الحب ، واشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تُسند الدين وتغذيه عاطفة قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ؛ فاذا تجرد الدين عن العاطفة ، والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ؛ هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : « إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأنك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه الى الوجود . وأنت البقية المنشودة ، التي هام في سبيلها المائفون وحار في الوصول اليها الباحثون » . ثم يستعرض العالم الاسلامي - وقد عرف شرقه وغربه ، وعريبه

وعجبيه - فيُعزّنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ،
وسقوط الهمة وقلة البضاعة^(١) في رجال الدين . ويرى أن المراكز
العلمية والدينية - بمعناها الواسع - محرومة من عمق الفكر ، وسلامة
الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز ، التي
تتزعّم العالم الاسلامي ، وتقود الأجيال البشرية . ويقول : «إني هامم
في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أس نوراً وحرارة ، وقد
قضيت حياتي في البحث عن تلك الأبعاد التي مضت ، وأولئك الإبطال
الذين رحلوا ، وغابوا في غياهب الماضي . ان شعري يوقظ العقول ،
ويجز النفوس ويربّي الآمال في الصدور ؛ ولا عجب اذا كان شعري
يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان رقعته في النفس كبيراً وحيقاً ، فقد
سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي . ودعائي أن
لا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يُقبل في شعره الى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته
بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرة حقيرة أو
قطرة صغيرة ، في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرف
نوره على ذرة ، فكانت شمساً بازغة ؛ وكيف تجلّى بالجلال ، فكان
في الارض ملوك كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ؛ وكيف تجلّى
بالجمال ، فكان زهاد وعباد . زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق
الله ، ويقول : « ان الحنين اليك ، هو حادي الروح ورائد القلب ،
وهو الذي يضيء على صلاتي ، وعبادتي حياة وروحانية ؛ فإذا تجردت
صلاتي من هذا الحنين ، لم أر أنها تقرّبني اليك . لقد وجد عندك
العقل والعاطفة ، ما يعوزهما وما يحتاجان اليه ، فأصبح العقل - بعد

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما م يصدده .

توفيقك - يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركذ ،
واقصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ؛ وعرفت العاطفة
الحضور والاضطراب ، ويناجي ربه ويقول : « ان الشمس لم تستطع
أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الارض بنور ربها ،
ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية ، الطويلة
الواسعة ، وأنه قد انضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ،
وليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب . ويذكر الصراع بين
العقل والعاطفة ، والمصلحة والايان ؛ ذلك الصراع الذي لم يزل ، ولا
يزال قائماً حامياً . ويذكر معركة قامت ، في فجر التاريخ الاسلامي ،
بين المادة والايان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع
راية الايمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر^(١) .

فلينظر العالم العربي الى أي معسكر ينضم ؟ الى معسكر المادة
والمعدة ، أم الى معسكر الايمان والإخلاص ؟ والى أي راية ينضوي ؟
الى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم الى الراية
المحمدية التي التف حولها أبو بكر وعمر .

(١) من « بال جبريل » ديوان شعر لأقبال . قصيدة « ذوق وشوق » .

في غزنين

سافر محمد اقبال ، على دعوة من ملك الافغان الشهيد نادر شاه ، عام ١٩٣٣ م الى افغانستان ، ومرّ في طريقه على غزنين ، عاصمة اسكندر الاسلام السلطان محمود الغزنوي ؛ وزار قبر الشاعر الحكيم السنائي الغزنوي ، الذي يعتبره محمد اقبال استاذآ له في الشعر والحكمة ، وصليفاً بعد مولانا جلال الدين الرومي . وطاب له الوقت ، وفاضت فريخته بشعر إسلامي حكيم ؛ بثّ فيه أشواقه وآماله وآلامه ، ونظر فيه الى العالم المعاصر بعين حكيم شاعر ، ومؤمن فائر . وسجّله تذكّاراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية .

يشكو الشاعر العظيم ، في مستهل هذه القصيدة ، ضيق هذا الكون ، ويذكر أنه مع سعة التي يوصف بها لا يسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أن هذه الدنيا - برحابتها الواسعة ، وصحاريها المترامية ، ومتعتها الفاتنة - تسع فرداً واحداً وزقه الله علو الهمة ، وكبر النفس ، وحرارة الحب ، وينتهه بسوء التقدير ، وضيق التفكير . ويقول ، في صراحة وثقة : « إنّ من عرف نفسه وقيّمته تحرر من هذا العالم المادي ، وتمرد عليه ؛ وذلك سر التوحيد الذي لا يزال الناس في غفلة عنه . وإنّ من تفتحت بصيرته ، تجلّى له الجمال الالهي ، فرآه في هذا الكون » .

ويذكر هنا محمد اقبال انه لا صراع بين العلم والمعرفة والحب ،

وانما هو من تصوير المنتسبين الى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ؛ فقد رأوا في من ملكه الحب ، المنافسَ للعلم والدين ، وقسوا أو امرعوا في الحكم عليه ، ويقول : « إن الاستغناء عن المادة وأصحابها ، والحكومة ورجالها ، هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية ، فلا سبيل اليهم ، ولا سلطان عليهم للولك والاغنياء . ثم يقول ، في دلال واعتداد : « لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلدني في لوعتي وسكري ، فتلك نعمة خصّ الله بها بني آدم ، وحسبك الذكر والتسبيح والطواف ، الذي جبل الله عليه الملائكة الكرام . »

وهنا يقبل الشاعر الى العالم ، الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ، ويقول : « لقد عرفتها وعشت فيها زماناً ، ولا ينبئك مثل خبير . » ثم يقص ما يعانين من أزمة ، وما يقاسيان من علة ؛ فيصورهما تصويراً صادقاً دقيقاً ، لا يستطيعه إلا من اختبر الشرق والغرب ، ويقول : « أما الشرق فقد توفر فيه الاستعداد ، ولكن يُعوزُه الموجه والقيادة الرشيدة ؛ وأما الغرب فقد أنجم بالقوة والوسائل ، ولكن حُرِمَ لذة الايمان ، وبرد اليقين . » ويتذكر العالم الاسلامي ، فيقول : « لقد انقرض منه أولئك العماليق الذين كانوا يتحدون الملوك ، والاباطرة بأنفتهم ، وكان في فقرهم وزهادتهم حنف للاستعداد . »

ويتذكر العالم العربي فتحزنه الاوضاع الفاسدة هناك^(١) ؛ يحزنه عبث الملوك العرب ، وأمرائهم ، وزعمائهم ببلاذهم العزيزة ، والمقدسات الاسلامية ، ووقوعهم في شباك الاجانب مرة بعد مرة ، وانهاكهم في لذاتهم وشهواتهم ، فتصدر منه كلمة قاسية لاذعة ، لم يُصدرها إلا الايمان العميق ، والحمة الاسلامية ، فيقول : « ان هؤلاء الشيوخ والأمراء

(١) لا ينسى القارئ أن هذه القصيدة قبلت في عام ١٩٣٣ م .

لا يُستغرب منهم أن يبيعوا جُبة أبي ذر ، وكساء أويس القرني ، ورداء فاطمة الزهراء^(١) ، وأعز المقدسات ، في كأس يَحْتَسِنُها ، ولذة ينتهبونها . ويقول : « إن نفوذ الاجانب في جزيرة العرب والاقطار العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثير من أجزائها ، حقيقة مؤلمة ، يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة الساعة ورجفة القيامة ؛ ومثل بشرط بيت للعكيم السنائي - الذي وقف اقبال على قبره ونظم هذه القصيدة - قاله عندما ملك التتار العالم الاسلامي من اقاصه الى اقاصه ، وهددوا الحرمين الشريفين : لقد ملك التتار مركز الاسلام ، والعرب - الذين كانت لهم الوصاية على العالم الاسلامي ، وهم مسؤولون عنه - في نوم عميق لذيذ » .

وينتقد الشاعر الحضارة العصرية ، التي كانت مصدرها أوروبا النائرة الحائرة فيقول ، في تحليل عالم فيلسوف : إن الحياة الانسانية لانستقيم ، ولا تنزف إلا اذا جمعت بين النفي والاثبات ، بين الجحود بالزائف الباطل ، وبين الايمان بالحق الثابت ؛ وتلك هي الكلمة الجامعة التي أصبحت شعار الاسلام ، وعقيدته : لا اله الا الله .

فالشطر الأول - الذي هو النفي - إنكار لجميع الآلهة الباطلة ، من أصنام ، ومادة ، وسلطان ؛ والشطر الثاني - الذي هو الإثبات - إقرار للحق الذي لاحق غيره . وقد قطعت أوروبا الشوط الأول بشجاعة وقوة ، وأنكرت الوسائط بين الله وبين العبد ؛ واثارت على الاحتكار الديني ، الذي مثله الكنيسة اللاتينية ، في القرون الوسطى ، وألحقت عليه رجال الدين والكهنوت ؛ واثارت كذلك على الحكومات الجائرة المستبدة ، فأحسنن ؛ ولكن خذلها التوفيق في قطع الشوط الثاني الاخير ، شوط

(١) كُنَايَاتُ عَنْ الْمَقْدِسَاتِ وَالْأَشْيَاءِ الْحَبِيبَةِ إِلَى نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ .

الإثبات ، والتقرير ، والايان الجازم ؛ والانسان لا يعيش على النفي فقط ، ولا يتكون المجتمع ، ولا تقوم الحضارة على النفي وحده ، فلذلك بقيت أوروبا - التي أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيها ، وسخرت الطبيعة لمقاصدها ومصلحتها - حائرة مضطربة ، تائهة لا تملك الايمان ، ولا تملك العاطفة ، ولا تملك الغايات الصالحة ، وأصبحت مهددة في الزمن الاخير بالانهار أو الانتحار . وهكذا لحص محمد اقبال تاريخ أوروبا المدني ، والفكري الطويل ، في عبارة وجيزة ، ومقطوعة شعرية ، هي عبارة دراسة طويلة وتفكير عميق .

والشاعر غير متشائم في نظراته وحكمه ، وهو غير يائس من مستقبل الشرق ، فيقول : « ان الشرق زاهر بالقوة والانتاج وتبدو من هذا المحيط الهادي ، موجة قوية تهز العالم ، وتزول أوكار الفساد والاستبداد » . ويرجع الشاعر فينمى على الاستعمار ، الذي يوزح تحته الشرق الاسلامي ، والذي أثر في تفكيره ومشاعره ، ففقد الشعور بالجمال ، وأصبح لا يوثق بأرائه واتجاهاته ، ويقول : « ان المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه ، ولا يعتمد على استعسانه واستهجانه ، وإنما الميزان هو الرجل الحر ، والشعب الحر ، الذي يعيش حراً ، كريماً ، مستقلاً بتفكيره وميوله ؛ فان الاحرار ، هم وحدهم ، أصحاب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ؛ وان رجل الساعة هو ، الذي شق بهته الطريق الى المستقبل ، ولم يقتنع بالحاضر » .

ويرجع الى تأثير الثقافة الاوربية في عقول الشباب الاسلامي - ومن أدري به ، فقد نشأ في أحضانها - ، فيقول : « لقد نجح الربوبي الغربي ، الذي برع وفاق في صناعة الزواج ، في مهته ، حتى استطاع ان يضعف الامم التي عرفت بالنخوة والشكينة والانفة ، فأصبحت شعوباً رخوة قاعمة . وأثر في الصخور والحجارة حتى أصبحت نسل

رقة ، وفقدت صلابتها واستقامتها^(١) ؛ وبالعكس قد ملكت الأكسير «
الذي يحول الزجاج الى حجارة صماء ، لا تؤثر فيها السيول الجارفة
والمعاول الهدامة . لقد استطعت أن أقاوم الفراعنة ، الذين مازالوا
مني بالرصاد ، بفضل اليد البيضاء^(٢) ، التي أخفيها في اكمامي ؛ ولا
عجب ، فان الشرارة التي خلقت لتعرق غابة بأمرها ، لا يتغلب عليها
الحشيش والمشم .

« ان الحب يبعث في الرجل الاعتداد بالنفس ، والاحتفاظ
بالكرامة ، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمادة
والسلطان . »

وهنا تأخذه الهزة ، ويملكه حب النبي ﷺ ، والاعجاب بشخصيته
المعجزة ، ورسالته الخالدة - وهو الموضوع الذي لا يملك اقبال أمامه
نفسه - فيقول : « لا عجب اذا انتقادت لي النجوم ، وخضعت لي
الأفلاك والكواكب ؛ فقد ربطت نفسي بركاب سيد عظيم ، لا يأفل
نجمه ، ولا يعثر جده ؛ ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل ، وامام
الكل ، محمد ﷺ ، الذي وطأت قدمه الحصاة ، فأصبحت إنشداً
يكتحل بها السعداء . »

وهنا يقف الشاعر ويقول : « يمنعني الحياء من الشاعر الحكيم
- السنائي الغزنوي - والأدب معه أن استرسل في الكلام ، وأطيل
الموضوع ، وإلا أمامي مجال واسع من المعاني ، والبحر زاخر
بالدرر والآلي . »

(١) يعني به اقبال عن تأثير الحضارة الاوربية في اخلاق الشرقيين وما يتصلون به ،
بعد الثقافة الاوربية ، من الرقة والنمومة والفسولة .
(٢) كناية عن الايمان والاستغناء عن المادة .

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد - القائد الشاب - بجيشه العربي المسلم على أراض إسبانيا ، مدخل أوروبا ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ^(١) » ... فيشير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صف طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافيء الجيش الإسباني في العدة والعدد ، ووصول الميرة والمدد ؛ فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريب منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطعم في ميرة ولا مدد ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلب عليه . ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعنة السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ؛ وفكر ، فلم ير حيلة إلا أن يضيف إلى هذا الجيش قوة لا تهزم ، وإرادة لا تغلب ؛ إنما القوة الإلهية ، وأنها الإرادة الربانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه . أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

سمعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام . وقد قال الله : « وإن جُندنا لهم الغالبون » « وإن جُندنا لهم المنصورون » .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ - قائد الكتيبة المؤمنة الاولى - لاذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يميني ، ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » . فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد اقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك ، رجال غامضون مجهولون ، لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك . لقد منحتهم ظموحاً وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك ، وينفذون فيها أمرك ، لا يعلمون غيرك . أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصواتهم الجبال . لقد ذاقوا لذة الايمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ؛ وذلك شأن الحب اذا خالطت بشاشته القلوب . ماجاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين الى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهم الوحيد . لا يفتكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التودي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ، ونفوسهم بسخاء وشجاعة . إن العالم بحاجة الى دم عربي دكي فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليه إلا

الدم العربي الطاهر . ها ان الازهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فتزول في حلة . وقد قدمنا للزرع نفوسنا ، ونزق دماثنا في هذه الارض النائية ، لتخصب الانسانية بعد جـدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظار شاق ، طال أمده .

لقد أكرمتَ يارب ! رعاة الابل وسكان الدير - العرب - بنعم فريدة ، لم يشركهم فيها أحد . لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ، هو : أذان الصبح . فقد أفلست الامم في العلم الصحيح ، والايان القوي ، والذوق الرفيع والدعوة الصارخة السافرة الى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ؛ أما العرب فقد فاجأوا العالم بصحة علمهم ، وجدة ايمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودوي أذانهم في السكون الخيم على العالم ، والظلام الحالك . لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون طويلة ، وقد وجدت من جديد في قلوبهم الفائضة بالايمان والحنان . انهم لا ينظرون الى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الانسانية ؛ انهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً . أعد يارب ! الى هذه الأمة المؤمنة ، الحية الايمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلّت في دعاء نوح ، فقال : رب لا تذرنّ على الأرض من الكافرين دياراً ، حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد . واخلق فيها المطامع البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعباً وهيباً ، حتى تعمل نظراتها مل السيوف^(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق - القائد المؤمن المختص - وانتصر الجيش الاسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العدد والعدد ،

(١) من « بال جبريل » ، ديوانه .

واصبحت اشبانيا النصرانية الأوروبية الاندلس الاسلامي العربي . وقامت
دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قرونا ولم تضعف ولم تزُل ، إلا
بمقدم الروح التي فضلَّع بها طارق واصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي
جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الايمان الذي امتاز به طارق
بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانهاكهم في الشهوات والحروب
الداخلية ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ
اللهِ تَبْدِيلًا .

★ ★ ★

حديث الربيع

خيم سلطان الربيع ، وانتشرت جنوده في رحاب الصحراء ،
وأودية الجبال وقامت دولة الزهور والرياحين ، ودبت الحياة الى
الصخرات والحجارة حتى كادت تنطق وتنطق . وغشيت العالم سحابة
من المرح والسرور ، حتى أبت الطيور ان تستقر في أوكارها مرحاً .
وانطلقت عيون الجبال تبتس وتنبس كالحياء في الصعيد ، تدب
أحياناً ، وتجري برفق وعدوه ، وتتدفق أخرى وتجري بقوة وسرعة ؛
وإذا حبسها حابس ، فلت الصخور والهضبات ، وشقت طريقها الى
الامام ، ولأنها بخيرها الدائم تغني نشيد الحياة وتردد حقائقها .^(١)

يصني محمد اقبال - الشاعر الحكيم - الى هذا النشيد ، ويرى
كيف تتلون هذه العين التي تدفقت من بعض الجبال ، وكيف تنعطف
وتتخرج ، وتتداول الرفق والقوة ، وهي مع ذلك كله لا تفقد حقيقتها
وحياتها ؛ متسلسلة في الفيضان ، مستمرة في الجريان . ويرى فيها صورة
للحياة ، التي تجري باستمرار ، وتظهر في أدوار واطوار ، وتلتزم
الحركة والتطور ، فإلها من قرار . ويستلهم الشاعر الحكيم ، من مناظر
الربيع التي فتقت قريحته ، وأهاجت شاعريته ، ومن الدروس التي
يلقيها نهر الحياة الفياض ، معاني حكيمة ، يهديها الى الجيل الاسلامي

(١) مأخوذة من نفس قصيدة اقبال .

الجديد ، الذي هو مناط آماله ، وبهينه لاستقبال العصر الجديد الذي ظهرت تباشيره .

ويقول : لقد تغير العصر وأوضاعه ، وتكشفت اسرار أوروبا ، وما كانت تضمره ، وتبنيه للشرق ، حتى أصبح فلاسفتها ودهانها وزعماؤها في حيرة من أمرهم . لقد افلست السياسة الاوربية ، وأخفقت أساليبها القديمة ؛ وأصبح العالم يبغيض الامارة والملوكية ، وثار المجتمع على الافراد والسلاطين . لقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش وانتهت هذه المسرحية التي مثلها الملوك وابطال الف ليلة . لقد تخطت اليقظة العالمية ، الى شعوب معروفة بالكسل ، والسبات العميق ؛ وتدفت عيون جبال همالايا ، ونهيات جبال سينا ، وفارات لإشراق جديد .

ويقبل كعادته الى امته الاسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الاسلامي ، فيقول : « ان المسلم ، وان كان لا يزال متحسناً في التوحيد ، فقلبه لم يتجرد بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها ، ان الحضارة والتصوف والديانة وعلم التوحيد ، لا يزال كل ذلك خاضعاً للنفوذ العجمي ، لقد طفت الخرافات على الحقيقة ، وتاهت الامة في الاخبار . إن الخطيب ^(١) يسهر المجتمع بكلامه وخطابته ، ولكنه جاف قليل الحظ من الحنان ، ولذة الشوق ؛ ان كلامه مؤسس على المنطق والقواعد ، ومشحون بالمفردات الغريبة ، والتراكيب البديعة ؛ ولكنه لا يأسر القلوب ، ولا ينفذ الى أعماقها . أما « الصوفي » الذي تجرد لخدمة الحق ، والحب لخلق الله ، وكان يلتهب غيرة وحمية للدين ، فقد ابتلعه الفلسفة العجمية ، و « الشكليات الصوفية » . ^(٢) لقد انطقت

(١) يعني به رجال الدين الذين يخطبون ويؤلفون في المقاصد الدينية ويمطون الناس .

(٢) إشارة الى تطور التصوف الاسلامي ، والمخططة في العصر الأخير .

شعلة الحب والحنان في المسلم ، فاصبح ركماً من رمد ، لاشعة فيه
ولا حياة . .

وهناك يدعو محمد اقبال ربّه مخلصاً أن يعيد الى هذه الامة
الحياة ، ويعيد اليها عهدا الاسلامي الزاهر الاول ؛ ويدعو أن يلهب
في نفسه العاطفة ، ويشعل شعلة الحب فيستبد منها قوة ، وخفة روح
وسمو لا يحظى به الا المحبون المؤمنون ؛ فيطير بجناح الحب ويصل
الى ما لا يصل اليه الثقلاء المادبون ويدعو ان يخلق الله في هذه الامة
الهامدة الحامدة قلب عليّ ولوعة ابي بكر - رضي الله عنها - وأن
يبعث في صدورهم الآمال التي ماتت .

وهناك تأخذ الشاعر أريجية الشفر والايمان ، فيقول : « حيا الله
نجوم سمواتك ، التي تلمع ليلا ، وعُباد ارضك ، الذين 'يحيون' الليالي
عبادة وتلاوة ، أحبي قلوب الشباب الاسلامي ، واجعلها خفاقة حساسة
متوجعة ، وارزقهم يارب ! حيي ، وعاطفتي ، وفراسي وحكمتي .

لقد وقعت سفينتي في لجة ، وأحيط بها من كل جانب ، فأخرجها
من هذه اللجة ؛ وقد وقفت ، فاجعلها سائرة جارية ، تصارع الامواج
واشرح لي كيف تموت الحياة ، وتنفد حيويتها ، فانه لا يخفى عليك
شيء من هذا الكون .

لبس عندي يارب الا هذه الآلام التي اقاها ، والتي حرمت عليّ
النوم ، وسلطت علي الارق ، هذه المطامع البعيدة ، والآمال الواسعة
التي اربها ، هذه الانات التي أرسلها ، في ظلام الليل ؛ وهذه الساعات
الحلوة ، التي أخلو فيها ، وأناجيك ؛ وهذه المجالس التي أبث فيها
أشواقي ، وأستزف فيها آماقي . إن فطرتي التي فطرتني عليها ، مرآة
ينعكس فيها اتجاهات العصر ، ومرتع يرتع فيه غزلان الافكار

والخواطر (١) . وان قلبي ساحة ، يتجدد فيها معارك وحروب ، بين جيوش الظن والتخمين ، وبين ثبات العقيدة واليقين . (٢) هذه هي ثروتي ، التي اعتز بها في فقري ، وادعوك يارب ! ان تقسمها في الشباب الاسلامي ، وتملكهم اياها ، فتصادف محلها ، وتصل الى من هو أحق بها ، وأهلها .

وبعد ان يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها في الكثرة ، وتطورها وظهورها في مظاهر شتى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجود ، وقوتها وسرعتها ؛ كل ذلك في عمق ودقة ، وهي قطعة فلسفية أدبية ، تستحق الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة وعلمائها ورواد الادب والشعر يهيب بالشباب الاسلامي ويقول له ، وهو يعرف اندفاعه الى المادة والشهوات ، وغرامه الشديد بالوظائف والمرتبات :

« إن الرزق الذي يفقد الابي الكريم كرامته ، ويزراه في حرته وشرفه سم زعاف ؛ ان القوت المقبول ، هو الذي يظل معه الرجل موفور الكرامة ، مرفوع الهامة . ازهد في ابهة السلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بقيمتها وكرامتها ، وان السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السجدة التي تحرم عليك كل سجدة لغير الله » .

ثم يحثه على مغامرات جديدة ، وفتوح جديدة ، وتقدم دائم ، وطموح قائم ، حتى تنكشف له عوامل جديدة ، لم يحلم بها علماء الطبيعة ، ولم تحدث عنها العلوم الكونية .

(١) يشير الى ما ينشأ له من افكار جديدة ونظريات .

(٢) يشير الى الصراع النفسي بين الفلسفة والدين والمحافظة الذي لم يزل الشاعر الحكيم يعالجه في حياته .

« ان هذا الكون ، الذي يتركب من لون وصوت ، والذي هو خاضع لناموس الموت ، والذي تسرح فيه العين وتنتسج فيه الاذن ، وليست الحياة فيه - عند اكثر الناس - الا الاكل والشرب ، ليس هذا الكون الفسيح الجميل ، هو المرحلة الاولى لمن عرف قيمته ؛ انه ليس وكرك الذي تستريح فيه ، والغاية التي تنتهي اليها . ليست هذه الارض ، التي مادتها التراب ، مصدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملهبة ؛ انت مادة الكون ، وليس الكون مادتك . كن في تقدم دائم ، ورحلة دائمة ، وحطم هذا الجبل الاصم ، الذي يعترض في طريقك ، وغرد على هذا الزمان والمكان ، وتحرر من قيودهما ، وانطلق من حدودهما ؛ فان المؤمن اذا عرف قيمة نفسه اقتنص هذا العالم ، واقتنص هذه الارض والسما في بعض ما يقتنص . »

« ان هنالك عوالم وأكوانا ، لم تقع عليها عين بعد ؛ فان ضمير الوجود لم يفرغ جعبته ، ولا يزال يأتي بمجديد . وان هذه العوالم متشوقة لمجومك ، وغارتك ، وزحفك ؛ متشوقة لأبكار افكارك وبدائع اعمالك . ان هذا العالم يدور دورته ، لتتكشف عليك نفسك وحقيقتك . أنت فانح هذا العالم ، الذي يحتوي على خير وشر ؛ ويعجز البيان عن وصفك ، ويعجز الملائكة عن مرافقتك وعن غاياتك . »

نياحة أبي جهم

زارت روح عمرو بن هشام - زعيم الجاهلية والنخوة العربية - مكة ، وقد أصبحت بلد الاسلام والتوحيد . وطهر بيت الله للطائفين والقائمين والركع والسجود . وحرمت عبادة الاصنام ، والاثان الجاهلية ؛ فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة . ^(١) وقام المؤذن على شرفات الحرم ، ينادي ، بأعلى صوته ، خمس مرات : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظمت بالآباء . وأصبح الناس يعتقدون أنهم من آدم ، وآدم من تراب ؛ فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، إلا بالتقوى . وسمع الناس يتلون : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » . وأصغى الى الناس ، في غدوم ورواحهم ؛ فلم يسمعهم يفتخرون ببلد أو نسب ، ووطن أو شعب . وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيّر أحداً بأمه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبيشته ، أو عجميته . ويتناول بعربيته أو قرشيته . وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاخرة

(١) كان أكثرها اصنام قريش ، والتي كانت لقبها ، كانت قريش تعظمها . راجع ابن هشام وابن الكلبي .

بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ؛ ولا مساجلة في مآثر الجاهلية وأيام العرب . ورأى الناس بالعكس يرجعون الى عبد اسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم فلم ير غرقاً جاهلياً ، أو نزعة عربية ، أو نغمة قومية ، يتعلق بها سيد بني مخزوم ، ويقرّ عيناً . ورأى ان الحياة القديمة ، قد نسخت وأبطلت ، ووُلد مجتمع جديد ، قام على أساس من العقيدة والخلق والفضيلة والتقوى . وتغيرت الموازين والقيم ، وتغيرت عقول الناس ونفوسهم . وسُمع ينشد في حزن واستعجاب :

فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كُنت أعرف

لقد أشكلت الامور على سيد بني مخزوم ، وأهبت مكة عليه ، وهو ابن البلد ، وسيد من ساداتها ؛ فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويتمتع فيه ضعفاء المسلمين ، لأنكر مكة ، وأنكر الوادي . ورأى أنه قد ضل الطريق .

لقد كان يرى في الدين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ ، الخطر والضرر على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصية القرشية ، والنظام الجاهلي الذي يقوم على النصب ، والوطن ، وتفضيل الدم والعرق ؛ ويرى العالم كله في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكة ؛ ولا يعني بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كله في العرب ؛ فغيرهم عجم وعلوج ، لا يستحقون مدحاً ولا يستحقون رحمة ، ولا يستحقون عدلاً . لقد كان يرى كل ذلك ، ويتوقعه .

وكان من أشد الناس حماسة في الدفاع عن الجاهلية ، واصدق الناس
فراصة في معرفة غايات الاسلام ؛ ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم
يكن يعرف أن الامر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأن الاسلام يؤثر
في الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تطرد من عاصمتها ، ومهدا هذا
الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورؤي
متعلقاً باستار الكعبة يستغيث على محمد ﷺ ، وينوح ، ويقول :
« ان قلوبنا - معشر الجاهلين - قروح وجروح ، تسيل دماً ،
ما صنع محمد ؛ فقد أطفأ نور الكعبة ، وحط من مكانتها وقدرها ،
لقد نعى قيصر وكسرى ، وقتباً بزوال الملوك والسلطين ، ونادى
بأعلى صوته : « إِنَّ الْحَكَمَ إِلَّا لِلَّهِ ، وَدَّ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ
يَشَاءُ » ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وقتلوا به ، وبدينه الجديد .
ساحر يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ؛ وهل كفر أعظم من
قوله « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ،
وعبدوها في جميع الأعصار والامصار ؟! إنه طوى بساط دين الآباء ،
وفعل بآلتها الأفاعيل ، لقد جعل اللات ومناة جذاذاً بضرباته الموجهة ؛
فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثار الآلهة . يا عجباً ! لقد جرّد القلوب
عن معبود مشهود ، يرى ويلبس^(١) ، وربطها بمعبود غير مشهود ،
لا يرى ولا يلبس ؛ حتى كان هذا الايمان بالغيب أقوى ، وأعمق من
الايمان بالمشهود الموجود . هل لهذا الايمان أساس ؟ وهل لما لا يرى
وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجود لغائب ؟
هل يجد الانسان لذة وحلاوة في ركوع وسجود أمام غائب ؟ .

(١) يعني به الاصنام من الحجارة وغيرها .

ان دينه حنف الوطنية ، والقومية ؛ انه من قريش ، ولكنه
لا يفضل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس
مع مولاه على مائدة واحدة ، ويأكل معه . أسفاً ! انه لم يعرف
قدر العرب الاحرار ، وأكرم العلوج ، والعبيد السود ، لقد اختلط
الاحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم بالثيم ، والجليل بالدميم ،
وذلل العرب ، وذلل بنو قصي .

اننا لا نشك في أن هذه المؤاخاة ، التي بحث عليها محمد كثيراً ،
مبدأ عجمي . وقد تحقق لدينا أن سلمان مزدكي ، وإن ابن عبد الله
خُدع به ، وجر البلاء والشقاء على الأمة العربية . لقد جبل هذا الفقي
الهاشمي قبيته ، وشرفه ؛ لقد أعمته هذه الصلاة التي يصلها ، هل
لعجمي أصل عدناني ، وهل لأعجمي نطق عربي ، ولهجة مصرية ؟
عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام ، الذي يسميه
محمد وحياً ، بكلامكم البليغ الساحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الاسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ؛
ولماذا لا تقوم يا هُبَل ! يا ألمهنا الأكبر ! ولا تنتزع بينك من هؤلاء
الصباة . أغر عليهم ، وعكّثر عليهم الحياة ؛ أرسل عليهم ريحاً ، صرصرأ
غائبة ، تجعلهم أعجاز نخل خاوية . يا مناة ! يا أيها اللات ! بالله !
لا ترحلا من ديارنا ؛ وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ،
وإن كان لابد من الرحيل ، فلا تعجلا ، وامهلانا أياماً نتمتع بكما ،^(١)

(١) « جاويدنامه » لشاعر الاسلام محمد اقبال .

رجعت الجاهلية

مرّ شاعر الاسلام - في بعض زياراته الروحية وسياحاته الفكرية -
بوادٍ ، اجتمعت فيه الآلهة القديمة ، التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحت
أصنامها ، وتماثيلها ؛ وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السدنة
والكهان ، وتغنّى بها الشعراء والادباء . وكان يجمع الآلهة القديمة من
شعوب مختلفة ، وبلاد مختلفة ، وعصور مختلفة ؛ فهذا إله المصريين
القدماء ، وهذا رب التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب
الجاهلية ، واولئك آلهة وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك
رب الفراق ، وهذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا
زوج المشتري .

ثم انهم أشكال والوان ، فهذا قد سل سيف بيده ، وهذا تقلّد
حية ولواها حول عنقه ؛ وكلهم وجيلون مشفقون من الوحي المحمدي ،
الذي أحدث للثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، وولد للعالم
الجديد ، القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ؛ وكلهم
ساخطون حائقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارة مفاجئة سرّ بها الآلهة ، وتفاؤلوا بها ، وكان

« مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحب بالانسان القادم وأخبر زملاءه به : ابشروا يا اخواني ! فان إنساناً فرّ من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل الى العهد الماضي ، ليتوسع في العلم والنظر ، وجاء يتمتع بالآثار العتيقة ، ويتحدث عن مجدنا ، إنها بارقة أمل ، لاحت بعد مدة ، ونفخة هبت من أرض حكمتها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعث - إله الفينيقيين والكنعانيين القديم - أول من اهتز لهذه الزيارة ، فانشأ يغني في طرب ومرح ويقول : « إن الانسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ؛ فليست هذه العقائد ، التي يدن بها الانسان ، إلا خواطر تسنح له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ؛ إنه لا يرتاح إلا الى المحسوس المشهود .

حيا الله الافرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، والذين أعادوا الينا الحياة وبعثونا من مراقدنا . فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التي أتاحتها لنا الدهاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل ابراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذته .

إنهم صحبوا الغربيين مدة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ، وضيّعوا ذلك الدين الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بعث فيهم الايمان واليقين .

إن الرجل المؤمن الحر الذي لم يكن يعرف الحدود والجلبات ، ولا يعبد غير الإله الواحد الذي خلق السموات والارض ، أصبح يؤمن بالوطن ، ويقده ، ويعبده ويقاثل في سبيله ، ويكفر بالله ، ويهجره ، ويتناساه .

لقد خضع المسلمون لنفوذ الغربيين الماديين ومجدهم ، وأصبح
شيوخهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلدون شعارهم ، ويقتفون آثارهم ؛
فلنستبشر ، ولننتهز هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشباب ، وحق لنا أن نطرب ؛ فقد انهزم الدين ،
وانتصرت الوطنية والجنسية . إن المصباح الذي أثاره محمد ، تألب عليه
مائة « أبي لهب » يطفئونه . أننا لا نزال نسمع صوت « لا إله إلا
الله » ، ولكنه صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب ،
وكل ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشر والظلمة ، وشبابه
وأصبح الدين الإلهي مهدداً ؛ فطوبى لنا ولاخواننا الذين قطعوا الرجاء
من الحياة ، واعتكفوا في الخلوات والمغارات .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرف المطلق ، والحرية الكاملة في
حياتهم ، لم نثقلهم بعبادة وطاعة ، وإنما طلبنا منهم ركعة لا سجود
فيها . وقد أثرت فيهم العاطفة الدينية بالاناشيد والاغاني ، فلم تكن
صلاتهم إلا مكاءاً وتصدية ، ونعمة وأغنية ، وأي لذة في صلاة
لا غناء فيها ولا موسيقى ١٩

إن الناس لا بد يفضلون عبادة طاغوت مشهود ، على عبادة إله
غائب ، ورب لا يرى بالابصار .^(١)

(١) من ديوان « جاويد نامه » .

ساعة مع سيد جمال الدين الأفعاني

خرج الدكتور محمد اقبال مع شيخه ومريبه الروحي والفكري
- الشيخ جلال الدين الرومي - في سياحة روحية فكرية ، ومرّ في
جولته - الخيالية - بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصيات ماضية ، من
أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر ، والرجالات ، وتحدث
معهم في مسائل كثيرة (١) .

ومر في رحلته بمنزل بكر ، لم يطأه آدمي بقدمه ، وظهرت فيه
الطبيعة بجملها ، وتمثلت فيه الدنيا بسهولة وجبالها ، وميادينها وازهارها ،
وعاش منذ آلاف من السنين في عزلة عن المدنية والصناعة الانسانية .
وأعجب الشاعر جمال الطبيعة ورقة الهواء ، وخرير الماء في هدوء الصحراء .
وأقبل الى شيخه الرومي ، فقال وقد قرع أذنه صوت عذب
دقيق : مالي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر انسان ؟ فهل أنا واهم ،
أم حالم ؟

قال الرومي : إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسب
قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدم يوماً أو يومين ، لما هبط من الجنة .
قد شهد هذا المكان زفرائه وأفاته في السحر ، وبلت دموعه التراب ،
يزوره أصحاب المقامات الرفيعة كفضيل وأبي سعيد ، والعارفون الكبار

(١) وفي ديوانه « جاويد نامه » قصة هذه الرحلة .

كجنيد وأبي يزيد ؛ فلتنقّم ولنسرع لنذكر الصلاة في هذه البقعة
المباركة ، وننال لذة الروح ، ونعمة الخشوع التي حرمانها في العالم المادي .

ونحاض من مكانها مسرعين فوجدنا رجلين يصليان ، أحدهما أفغاني
والآخر من الأتراك . ونظر فيها ، فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغاني
يصلي خلفه الأمير سعيد حلیم باشا . فقال الرومي : ابن الشرق لم
ينجب في العصر الأخير أفضل منها ، وقد حلا كثيراً من عقدي
وألغازي . أما الإمام السيد جمال الدين ، فقد نفخ في الشرق الناعس
روح النشاط ، ودبت بدعوته الثائرة الحياة في الاموات والجمادات ؛
وأما الزعيم سعيد حلیم فقد جمع بين القلب الجريح الدامي ، والفكر
الحلق السامي ، والروح القلقة والعقل الكبير المستنير . إن ركعتين
مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فخلق هدوء المكاث
والزمان ، وشخصية الامام ، وجمال القرآن ، جواً خاشعاً رهيباً ،
رق فيه القلب وفاض فيه العين ؛ وكانت قراءة لو سمعها ابراهيم
الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ؛ وكانت قراءة
تقلق النفوس وتذيب القلوب ، وتعلمو بها صيغة التكميل والتلليل في
القبور ؛ وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتنضج بها معاني أم الكتاب .

وندع محمد اقبال يحكي قصته ، قال : « وقمت بعد الصلاة ، وقبلت
يده في أدب ومحبة ، وقد قدمني أستاذنا الرومي الى السيد ، وقال :
إنه جوال جوّاب في الآفاق ، لا يستقر في مكان ، ويحمل في قلبه
عالمًا من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ولم يخضع لأحد ،
فيعيش حرّاً طليقاً ، .

وأقبل عليّ السيد جمال الدين ، فقال : حدثني يا عزيزي ! عن

العالم ، الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ،
وينظرون بنور الله .

قلت : ياسيدي ! لقد رايت في ضمير الأمة التي خلقت لتسخير
العالم معركة حامية ، وصراعاً دامياً بين الدين والوطن . لقد ضعف
الايان في قلب هذه الأمة ، وفقدت روحها ، وقطعت الامل من سيطرة
الدين وسيادته ، فلبأت الى الوطنية والقومية . اصبح الاتراك والايروانيون
سكارى بصبء اوربا ونشوتها ، وأصبوا فريسة كيدها ودهائها .
أصبح الشرق خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعية بجمعة
الدين وبهاء الملة .

سمع الاتفاقاني كل ذلك في صبر وأناة ، وفي تألم وحزن ، ثم انفجر
قائلاً : ان الباقعة الاوربي هو الذي علم أهل الدين ، الوطنية
والقومية ؛ أما هو فلا يزال يبحث عن مركز لجمع الشعوب والاطوان ،
ولكنه بذر في الشرق بذور الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصر
والشام والعراق . فتحرر أيها المسلم الشرقي ! من قيود الوطنية والقومية ،
وكن عالمياً آفاقياً ، يعتبر كل بلد وطنه ، وكل أرض أرضه . ان
كنت تميز بين « الجميل » و « القبيح » ، فلا تترك نفسك وقلبك
بالتراب ، والحجارة ، والقمرميد . ان الدين هو ان ينهض الانسان
من الخضوض ، ويعرف قيمة نفسه . ان الذي عرف « الله » وآمن
به ، لم يسه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات . ان الحشيش ينبت
على التراب ، ويفني في التراب ، ولكن النفس الانسانية أسمى من أن
يكون مصيرها هذا التراب . إن آدم ولو خلق من ماء وطبن ، فقد
يأبى أن يدور حول هذا الماء والطبن ؛ إن جسمه يميل به الى الارض ،
وروحه تطير به في الاجواء الفسيحة . إن الروح لاتنحصر في الجهات ،

وان « الحر » لا يعرف القيود والحدود ؛ فاذا حبس في « التراب »^(١) اضطرب وثار ، لأن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الاوكار .

ان هذه الحلقة من التراب ، التي نسميها « الوطن » ونطلق عليها اسماء « مصر » و « ايران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسب ، لأن هذه الشعوب قد خضت من أرضها ولعلت من أفقها ؛ ولكن لا ينبغي ان تنضوي على نفسها ، وتنحصر في حدود أرضها . اما ترى الى الشمس تطلع بسانتها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث ان تتمرد من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه . إن فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وان كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية ، يا عزيزي ! فإن مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحق والباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله . إن الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق القلبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة » . إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ؛ وديانة « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إن الاخوة الانسانية لا تقوم على وحدة الاجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس .

إن الملوكية « بمن » ، يطرأ على الجسم ؛ صدرها مظلم خاو ، ليس فيها قلب خفاق . انها كالنحلة تجلس على كل زهرة ، وتتشرب منها الرضاب ، وتغادرها الى زهرة أخرى ؛ وتبقى هذه الزهرات بلونها وشكلها ورائحتها ولكنها أوراق بالية وحشائش ذابية . كذلك الملوكية تستحوذ على الشعوب والافراد ، وتمتص منها دماءها ، وتتركها أجساداً هامدة .

(١) يعني به « الوطن » .

إن « الملوكية » و « الشيوعية » تلتقيان على الشره والتهامة ،
والقلق والسامة ، والجهل بالله والحداع للإنسانية . الحياة عند الشيوعية
« خروج » ^(١) وعند الملوكية « خراج » ، والإنسان البائس بين هذين
الحجرين قارورة الزجاج . إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن ،
والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدي
العاملين والفقراء . لقد رأيت كليهما غارقتين في المادة ، جسهما قوي
مناصر ، وقلبهما مظلم فاجر .

ألا ! من يبلغ « روسيا » أن القرآن وتعاليمه في واد والمسلمين
في واد . لقد انطقت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت
صلتهم عن النبي محمد ﷺ . إن المسلم اليوم لا يؤسس حياته ، ولا
ينظم مجتمعه على مبادئ القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدين والدنيا .
لقد ثلّ عرش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه
عرشاً ملوكياً ، وتربع عليه ؛ واقتبس من العجم الملوكية وأساليها ،
وبذلك تغير نظره إلى الحياة . وتغير منهج تفكيره .

لقد حطمت « القيصرية والكسروية » مثل المسلمين في العصر القديم ،
فاعتبري أيتها الأمة الروسية ! من تاريخنا . عليك بالثبات والاستقامة
في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنام « الملوكية
والوطنية » فلا تعودى إليها ، ولا تطوي حولها مرة ثانية . إن العالم
اليوم يطلب أمة ، تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدّة .
فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته . لقد أصبحت ديانات الأفرنج
ودساتيرهم عتيقة بالية ، فلا تعودى إليها مرة ثانية . لقد أحسنت إذ

(١) يعني تجرد من العقائد ، والمواظف ، والآداب ، والحضارات .

الغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » ، فعليك أن
تبدأي مرحلة الإثبات « إلا الله » ؛ وهكذا تكملين مهنتك ، وتتمين
رحلتك العظيمة . إنك تبحثين عن نظام للعالم ، فعليك أن تبحثي له
عن أساس محكم ؛ وليس هو إلا الدين والعقيدة .

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الأولين أسطورة أسطورة ، فعليك
أن تدوسي الآن القرآن سورة سورة . وما أدراك ما القرآن ؟ إنه نعي
للملوكية والسحرة ، وحنف للاكتناز والاثرة ، وحياة للصعلوك ،
وبشرى للملوك . انه يذم الذين يكتزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها
في سبيل الله ، ويحث على إنفاق كل ما فضل عن حاجة الانسان ؛
ويقول في صراحة « لَنْ تَسْأَلُوا الْيَوْمَ حَتَّى تُنْفِقُوا إِمَّا تُحِبُّونَ » . إنه يحرم
الربا ، ويحل البيع ، ويحث على القرض الحسن ، وهل يتولد من
الربا إلا الشرور والفتن ، والقساوة والضاورة ؟ ان اكتساب الرزق
من الارض جائز ، فكل ما في الدنيا ملك لله تعالى ، ومتاع للعبد ؛
والانسان أمين في مال الله ، وصي على أرضه وخلقه ، « وَأَنْفَقُوا مِمَّا
جَعَلَكُمْ مُسْلِمِينَ خَلَقْنَا فِيهِ » . لقد انتكست راية الحق بطغيان الملوك ،
وخربت القرى والمدن بظلمهم وعيبتهم . ان المبدأ الذي يقرؤه القرآن :
ان قوت بني آدم من مائدة واحدة ، وان الاسرة الانسانية كلها
كنفس واحدة (١) .

انه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان . أقول لك
ماؤمن به وأدين . إنه ليس بكتاب فحسب ، إنه أكثر من ذلك .

(١) ماخلفكم ولا بئتم إلا كنفس واحدة .

إذا دخل في القلب تغير الإنسان ، وإذا تغير الإنسان تغير العالم . أنه
ظاهر ومستتر ؛ كتاب حي خالد ناطق . أنه يحتوي على حدود
الشعوب ، والامم ، ومصير الإنسانية .
لقد ابتكرت تشريعاً جديداً ، ودستوراً جديداً ؛ فجدد بك أن
تنظري الى العالم بنور القرآن نظراً جديداً ^(١) .

(١) « جاويدنامه » فلك عطارد باختصار واقتباس .

في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم

لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر - مدة حياته - في حب النبي ﷺ ، والاشواق الى مدينته ، وتقنى بها في شعره الخالد ، وقد طفق الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع . ولم يقدر له الحج ، وزيارة الرسول ﷺ بجسمه الضعيف ، الذي كان من زمان يعاني الامراض والأسقام ؛ ولكنه رحل الى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الحصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلّق في أجواء الحجاز ، وتحدث الى الرسول الاعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبّه ، واخلاصه ووفاءه (١) . وتحدث اليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمته ، وعن مجتمعه . وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني ، والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة إطلاقها ؛ وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخطب نفسه بقول الشاعر :

حامة جرعى دومة الجندل ، اسجعي

فأنت بمراى من سعاد ومسمع

فكان شعره في النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ اشعاره

(١) ليس هذا الحديث من الاستمانة في شيء ، إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب ، استعمله الشعراء قديماً وحديثاً .

وأقواها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويرا
لعصره ، وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه .

لقد قال محمد اقبال هذه الايات ، وهو يتخيل أنه مسافر الى
مكة والمدينة - شرفها الله - يهوى به العيس ، ويسير به الركب
على رمال وعساء ؛ يتخيل ، بشدة شوقه وحبه ، أنها أنعم من الحرير
وان كل ذرة من ذراتها قلب يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي
رويداً ويرفق بهذه القلوب الحفاقة . ويجدو الحادي بالاً يفهمه ، فتثور
أشجانه ، وتترنح أعطافه ، ونهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر
وقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثل بين يدي الرسول فيصلي ويسلم عليه بما يفتح الله
به عليه . وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه ، وبلاؤه ، والفترة التي
يعيش فيها ؛ وعن أمته ، وعن الازمات ، والمشاكل التي تعانيها ،
وما فعل بها الزمان وطوارق الحداث ، وما فعلت بها هذه الحضارة
الغربية ، والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها والامانة التي حملتها ،
وأن هي من ماضيها وخصائصها ؛ يرثي لها تارة ويبكي ، ويشكرها مرة
ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه ، ووحدته في مجتمعه ، وضيعه
رسالته في أمته . وقد سمى هذه المجموعة « هدية الحجاز » ، كأنها
هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ؛ ولا شك أنها هدية مباركة
للعالم الاسلامي ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ووهنت
قواه ، في سن يفضل فيها الناس الراحة والاقامة ، فما باله يسافر وهو
شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ؟ والسفر الى الحجاز شاق مضم ،
وقد نصحه الاطباء ، والأحبة بالراحة والهدوء ؛ ولكنه بعصيم ويطيع
أمر الحب ، ويلبي منادي الشوق ويقول :

« لقد توجهت الى المدينة رغم شبي وكبر سني ، أغني وأنشد
الايات في سرور وحزن ؛ ولا عجب فان الطائر يطير في الصحراء
طول نهاره ، فاذا أدير النهار ، وأقبل الليل وفرف يحناحيه ، وقصد
وكره ليأوى اليه ، وببيت فيه . »

كأنه يقول لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة - وهي وكر طائر
الروح ومأرز المؤمن - في أصل حياتي ، وفي سن أشرفت فيها شمس
الحياة على الغروب ؛ أما رأيتم الطائر اذا جن الليل أمرع الى وكره .
بدأ محمد إقبال سفره ، وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين
مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها : « رويدك يا حبيبي ! فان
راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن ؛ فمشت في نشوة وطرب
ولم تبال ، كأن الصحراء حرير تحت أرجلها . »

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحذو بالصلاة على النبي ﷺ .
ويريد الشاعر ان يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يذوم أثرها في
جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويلكه الشوق ، فيحدو ، وينشد أبياتاً من شعر العراقي (١)
والجامي (٢) فيتساءل الناس : من هذا الأعجمي الذي يعني ويحدو بلغة
لأنفهمها ، ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها إيماناً وحناناً ، حتى يذهل
الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء ؟!

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة
طعام وشراب . ولا يستطيل الطريق ولا يستبطن الوصول ، بل يقترح
على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول ، حتى يعيش في هذه الاشواق ،

(١) و(٢) شاعران فارسيان ، لها قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

حوفي هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق
موتزعة المشتاق .

وهكذا يطوي محمد اقبال هذه المسافة ، في سرور وحنين ، حتى
يصل الى المدينة ، فيقول لزميله : تعال يا صديقي ! نبك سروراً
وتتحدث ساعة ، ونوصل النفس على سجيتهما ، فان لنا شأناً مع هذا
الحبيب ، الذي أسعدنا به الحظ ، بعد طول فراق وشدة اشتياق .

ويقبل على نفسه ، فيتعجب كيف اختص ، من بين اقاربه ، بهذه
السعادة ، ثم يقول : « لاعجب فان الحنين المتيين أكرم هنا من الحكماء
المتفلسفين . يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع !! لقد سمح لصعلوك بملوك
أن يدخل على السلاطين والملوك » .

ولا يلبث محمد اقبال - وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة -
ان يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندي ، يذكر آلامها
وآمالها ؛ فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر ، وصداقة الرائد ، وما
أجملها اذا التقتا . يقول :

« ان هذا المسلم البائس ، الذي لا تزال فيه بقية من شمم وإباء ،
وأنفة الملوك وعزة الآباء ، لقد فقد مع الايام ، يا رسول الله !
لوعة القلب واكسير الحب ؛ إن قلبه حزين منكسر ولكنه لا يعرف
سر ذلك » .

« ماذا أحدثك يا رسول الله ! عن آلامه ورزيشته ، حسبك أنه
هو من قمة عالية ، انه هبط من تلك العلياء التي وصلت به اليها ؛
وكل ما ارتفع المكان الذي يسقط منه الانسان كان ألمه شديداً ،
وكانت الصدمة عظيمة ، فلفظ الله ! بهذه الامة المنكوبة ، الهاوية من
قمة الجبل العالية » .

« انه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه قائماً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله . حسبك من هذه الامة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ؛ انها تعيش من غير امام » .

« ان غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ؛ وان الكتاب ، الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الحرب ، على طاق تراكت عليه الاتربة ، ونسج عليه العنكبوت » .

« انه أصبح ، بطول غمده بالمغامرات والبطولات ، لا يفهم لغة المغامرين ، واهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألفت نعمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين » .

« وإن عينه فقدت النور ، وإن قلبه حرم السرور . ان رزيئته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور » .

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم ، الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتراف ، وحاضره القاسي الكالنج ؛ وكيف صعب عليه أن يتقشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة . وما أبلغ قوله : « انه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربّيته بالفواكه ، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء » .

ويتذكر محمد اقبال فتنة اللادينية التي توجهت الى العالم الاسلامي ، ويعرف محمد اقبال - وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد - أن سببها النظر المادي البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ؛ وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس . ويعتقد أنه لا سبيل الى محاربة هذه اللادينية ، والفلسفة الاقتصادية المادية الا الحياة التي تقوم على الحب والزهد ، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصديق ، المحب الزاهد . فيتمنى للمسلمين هذه

الحياة المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد : وإذا وجدت هذه الحياة
اضطر الناس الى تقديرها واجلالها .

انه لا يعمل انحطاط المسلمين بالفقر ، والضعف في المادة ، بل يعمل
بانطفاء تلك الشعلة التي التهب في صدورهم ، ويقول : « ان اولئك
الفقراء - المسلمين الاولين - لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في
صف واحد ، استطاعوا ان يسكوا بتلايب المذنبين ، ولما انطفت
هذه الجذوة في صدورهم انطورا على نفوسهم ، وأووا الى الزوايا والتكايا .
انه يستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيه ما يُخجل كل مسلم ؛
يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ؛
ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابرة والظغاة ،
ما يتندى له الجبين حياءً . يذكر « اقبال » ذلك كله ويطلق رأسه
حياءً وخجلاً ، ويقول في صراحة واعتراف ، وبلاغة وإيجاز : « ان
جملة القول ، ما كنا جديرين بك يا رسول الله » .

ويلقي نظرة على العالم الاسلامي ، وقد جال في أنحائه ، وعرف
مراكزه ، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي ، ويقول في إجمال : « ان
المراكز الروحية (الروابط والزوايا) أصبحت فقيرة لا تملك غذاء
القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها
الواسع) طغى عليها التقليد ، فهي تردد ما تلقنته في الماضي ، في غير
إبداع وابتكار ؛ وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة . أما
أندية الشعر والأدب ، فقد خرجت منها كثيراً حزينا ، فليس في
نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ويشير الطموح ؛ انه شعر بارد ، يخرج
من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت » .

ويقول : « قد ضربت في مشارق الارض ومغاريها ، فوجدت المدن

نقص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذي يفرق منه الموت ، فلم أر له عيناً ولا أثراً .

ويذكر السر في ضعف المسلمين ، وتشقت أهوائهم ونحوهم ، فيقول : « لقد شق علي ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً ، وشكوت الى ربي ، فقيل : ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب ؟! يعني انهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ، ويوجهونها اليه . فقلوبهم تائهة ، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سر . وهي حياة من رزق القلب وحرم الحب ، أو حياة من عرف الحب ، وجعل المحبوب . إنما ، لاشك ، حياة عذاب وشقاء ، وحياة حيرة وضلال .

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمة الله ؛ بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين ، وقطعهم الرجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول في عتاب وتألم : « ان أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وانهم متشائمون ، ينظرون الى المسلمين ، والى الحياة بمنظار أسود . ويقول : « ان المسلم ، وان كان قد تجرد عن أهبة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ؛ وانه إن قدر له ان يعود الى مركزه ، كان جماله جلالة ، وكانت له سطوة لا تطاق .

وهنا يقبل محمد اقبال الى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانیه من أهل عصره ومجتمعه . يقول : « إني أستحق العطف والعناية ، فاني في صراع عنيف ، وحرب دامية ، مع عصري المادي . ولا شك أن اقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما وانتقدتهما ، وزيفتهما

في شجاعة وعلى بصيرة وخبرة . وقد كان مربي جيل جديد ، مؤمن بالله ، واثق بنفسه ، معتدّ بشخصيته وشخصية الاسلام ، كافر بالأسس المادية والتفكير المادي ، الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحق له أن يقول :

« لقد أدت في الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه اسرار الروح والحب . لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنتُ ثائراً على فتن عصرى » .

ويذكر ترمده على العلوم الغربية ، وتفلقته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة : « كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الجبال ، ويأخذ الحب ، ويطير بسلام » . وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالماً .

ثم يقول في افتخار واعتزاز : « يعلم الله ! اني رحلت في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن أرزأ في عقيدتي ، وخلقى وصلتي بك . وقد جلست في نارها بشجاعة ، وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن ابراهيم عليه السلام - مع نار نمرود » .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوروبا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفائق ، والمظاهر الخلابة ؛ فيقول : « لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي . حتى لما وقع بصري عليّ لم أعرف نفسي » .

ويقول : « لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمرة حانته كأساً دهاقاً ، ياله من صدام اشتريته ! لقد عشت بين علمائه ، وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ؛ ياله من فترة مظلمة

قضيتها من حياتي ! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب . ان دروس الحكماء قد صدعت رأسي ، وكدرت بالي ؛ ذلك لأنني نشأت في حضانة الحب والايان ، فلا يناسبني ولا يملأ فراغ نفسي الا العاطفة والحنان . وهنا يقبل الشاعر الى الطبقة التي تمثل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول : ان العالم الديني لا يحمل همّاً ، ان عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع . لقد زهدت في صحبته لانه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم .

لقد شبهه محمد اقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلاً كبيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ؛ ومكة بيتها وزمزمها ، لبست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب . فما أفقر العالم الديني الذي يحمل علماً جماً ، ولساناً بليغاً ، وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دموعاً في عينه ، ولا لوعة في قلبه . انه أخذ من الارض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداهها . ثم يحكي عن نفسه . ويقول : « انني لم أبع نفسي وضميري لأحد ، ولم أستعن بأحد في حل مشاكلي ، ذلك لأنني اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مائتي مرة » .

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم ، فيقول : « اني أحترق بنار شوقي وحبي ، وأستغرب أني خلقت في عصر لا يعرف الاخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ؛ في عصر لم يعرف لوعة القلب ، ولم يذق لذة الحب . أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي ، وقد أتحدث الى نفسي وأخفف من أشجائي وآلامي » . ويقول : « إن اخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، انهم لم يحنوا الرطب

من تفل شعري ، اليك أشكو يا سيد الامم ! من أناس لا ينظرون إليّ
الا كشاعر أو متغزل .

لقد أمرتني يا رسول الله ! أن أبلغ اليهم رسالة الحياة والخلود ،
وأشدهم بما ينفع فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون
علي أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما
أمرتني به .

ويشكو ، في توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره في العلم ، الذي
كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ، ويقول : « عرضت قلبي
عسى أن يستأنسه أحد ، فلم أر فيه راعياً ولا له طالباً ، واجت
ثروتي ، وما يجويه صدري فلم أر لها مقدرأ ؛ فليعمر حبك قلبي ،
وليشغل حديثك لساني ، فاني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة
وأعظم غربة مني . »

ويختم قصيدته بآيات يوجهها الى المرحوم الملك عبد العزيز بن السعود
- باعتباره ملك الحجاز في عهده - وهو خطاب موجه الى جميع ملوك
العرب ، وزعمائهم ، وعظماهم يحذره من الاستعانة بالأجانب ، والدول
الاوربية ، وبدعوه الى الاعتماد على الله ، ثم على ما عنده . يقول :
« اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمة على
عمدك وأطنابك ؛ ولا تنس ان استعارة الاطناب من الأجانب حرام . »

الفهرس

صفحة

٣	حلتي بمحمد إقبال
	شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال . حياته وثقافته ، شاعريته
١٥	وانتاجه
٢٢	العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال
٤١	نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه
٤٦	نظرة محمد إقبال إلى العلوم والآداب
٥١	الانسان الكامل في نظر محمد إقبال
	من شعر إقبال :
٦٣	برلمان إبليس
٧١	إلى الامة العربية
٧٦	في جامع قرطبة
٨٤	في أرض فلسطين
٨٩	في غزنين
٩٤	دعاء طارق
٩٨	حديث الربيع
١٠٣	نياحة أبي جهل
١٠٧	رجعية الجاهلية
١١٠	ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني
١١٧	في مدينة الرسول

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

مؤسسة ثقافية تعمل على نشر نفائس الكتب القديمة والحديثة

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢ - بريقاً : فكر

المكتبة : شارع محمد الله الجابري

المطبعة : شارع خالد بن الوليد

تقديم :

* سلسلة ذخائر الفكر الاسلامي : للأستاذ أبي الاعلى المودودي

١١ - الحجاب

٩ - نظام الحياة في الاسلام

١٢ - تفسير سورة النور

١٠ - الربا

للطنطاويين

* اخبار عمر

* سلسلة حكايات من التاريخ : للأستاذ علي الطنطاوي

٤ - التاجر الخراساني

١ - جابر عثرات الكرام

٥ - قصة الأخوين

٢ - المنجرب ومدير الشرطة

٦ - وزارة بمنقود عنب

٣ - التاجر والقائد

ويليها حكايات أخرى

للأستاذ علي الطنطاوي

* في سبيل الإصلاح

» » »

* دمشق : صور من جالها وعبر من نضالها

» » »

* من نفحات الحرم

» أبي الحسن الندوي

* روائع إقبال

* أسواق العرب في الجاهلية والإسلام » طبعة ثانية » سعيد الأفغاني

» حسن عمار

* مصور الدول العربية المتحدة

ششاء الله خذان